رثاء الإمام الحسين عليه السلام في الشعر العباسي

أ.د. ثائر سمير حسن الشمري
كلية التربية الأساسية / جامعة بابل

لم يكن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام أمراً اعتيادياً أو سهلاً أو من الممكن أن يتكرر في زمن من الأزمان، فالحسين عليه السلام ليس رجلاً تقليدياً، لأنه سبط النبيّ محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كما أنّه ابن الإمام علي وفاطمة الزهراء (عليهما السلام)، وهذه الشخصيات كلّها رموز الإسلام الحقيقية وأعلامه التي بها تثبّتت دعائم الدين الإسلامي، ولاسيما إذا ما علمنا أنّ استشهاده كان على أيادٍ امتلأت بالذنوب والآثام وارتكاب المعاصي، وبالأخصّ يزيد بن معاوية وكلّ مَن دخل تحت رايته الآثمة ممَّن شاركوا في قتل الإمام عليه السلام وأخوته وأهل بيته (عليهم السلام أجمعين).

ومنذ أن دارت رحى تلك المعركة في واقعة الطفّ المعروفة في كربلاء سنة احدى وستين للهجرة، وانتهت باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام وكلّ مَن نصره من اخوته واقاربه وأصحابه، ما تزال المآتم ومجالس العزاء مستمرة إلى يومنا هذا استذكاراً وحزناً على ما حدث من الفاجعة الأليمة في اليوم العاشر من المحرم الحرام، وفي ذلك ما يؤكد انتصار المظلوم على الظالم، وما يدل على صدق المبدأ لدى شيعة آل البيت (عليهم السلام)، ولاسيما بعد مرور أكثر من ألف وثلاثمائة وسبعين سنة.

ولم تنتهِ خشية الظالمين بقتل الإمام الحسين عليه السلام ، وإنما استمرت حتى بعد ذلك، فكان العصر العباسي أبرز دليل على ذلك، ولاسيما الخليفة المتوكل، الذي لم يترك وسيلة معروفة أو غير معروفة لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام وأنصاره، حتّى أنّه هدَّم قبره، وأجرى النهر فوقه منعاً لزوّاره، كما فرض ضريبة المال على الزائرين، فضلاً عن ضريبة الدم.

إلاّ أنّ ذلك كلّه لم يحُل دون وقوف محبّي الإمام الحسين عليه السلام إلى جانبه، ونعني هنا الشعراء العباسيين على وجه الخصوص، إذ راحوا يرثونه رثاءً كلّه ألم وحسرة، على الرغم من الصعاب كلّها، فتفجّعوا عليه وأثاروا حزن الآخرين بقصائدهم الرثائية، فلم يتركوا جانباً دار في احداث تلك المعركة إلاّ وتطرّقوا له في مراثيهم تلك، فتكلموا على صلة قرابة الإمام عليه السلام بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وتطرّقوا إلى شجاعة الإمام عليه السلام في قتال أعدائه، وما إلى ذلك من أمور سنتحدّث عنها تباعاً، ولاسيما حمل رأس الإمام عليه السلام بعد قطعه، وسبي النساء، وعدم

هيبة حرمتهنّ بوصفهنّ أقرب النساء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نسباً ورحِماً.

الإمام الحسين عليه السلام سبط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):

أشرنا إلى أنّ الشعراء العباسيين لم يتركوا جانباً مهماً يتعلق بواقعة الطفّ إلاّ وأشاروا إليه في مراثيهم للإمام الحسين عليه السلام، ومن ضمنها حديثهم عن صلة الرحم المتينة بين الإمام عليه السلام والنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، فهو سبطه من ابنته فاطمة الزهراء (عليها السلام) من ابن عمّه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، لذا جاءت اشارات الشعراء العباسيين للصلة هذه في قصائدهم بوصفها نوعاً من الاستغراب لقتلهم له مع حمله لتلك الصلة العظيمة، وأول ما يلقانا في ذلك قول السيد الحميري الذي تحدّث عن ضرب (زياد) لثنايا الحسين عليه السلام بعد استشهاده، قائلاً:

لم يزل بالقضيب يعلو ثنايا ... في جناها الشفاءُ من كلّ داء
قال زيدُ ارفعن قضيبك ... عن ثنايا غرّ غذي باتّقاء
طالما قد رأيتُ أحمد يَلْثمها ... وكم لي بذاك من شهداء
بكت الأرض فقدَهَ وبكتهُ ... باحمرار له نواحي السماء
بكتا فقده أربعين صباحاً ... كلّ يوم عند الضّحى والمساء[1]

فقد قيل إنّه بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام ، أحضر زياد رأسه الشريف في الكوفة، وأخذ يضرب ثناياه بقضيب كان بيده، فقال له زيد بن أرقم: ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين ، فو الله الذي لا إله إلاّ هو لقد رأيت ثنايا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ترشف ثناياه، ثم بكى[2].

ويبدو أن السيد الحميري ضمَّن الرواية هذه في أبياته السابقة ليصور عمق الصلة بين الإمام الحسين عليه السلام والنبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم)، قاصداً – من وراء ذلك- ابداء الاستغراب من صنع الأشرار بالإمام عليه السلام وسوء أدبهم في التعامل حتّى مع جثته الطاهرة.

ويؤكد الشاعر ديك الجن- في مرثيته للإمام الحسين عليه السلام -تلك الصلة القوية التي تربط الإمام الحسين عليه السلام بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو يؤكد ذلك اثناء ذرف الدموع على المصيبة التي تمّت في كربلاء على أيادي أشقى الأشقياء، قائلاً:

الحَوضُ حَوضُهُمُ، والجدُّ ... وعندَ رَبِّهِمُ في خَلْقِهِ غِيَرُ
أَبكيكُمُ يا بَني التّقوى ... وأشربُ الصَّبرَ وهو الصّابُ
أَبكيكُمُ يا بَني بِنْتِ الرَّسُولِ ... عَفَتْ مَحَلَّكُمُ الأنواءُ والمَطَرُ[3]

ويكرر ديك الجنّ تلك القرابة المتينة حينما يرثي الإمام الحسين عليه السلام، من خلال أنّ قتلة الإمام الحسين عليه السلام كأنهم قتلوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد تعمدوا ذلك القتل، وفي ذلك دلالة صريحة على الجرم الخطير الذي ارتكبه الظالمون في واقعة الطفّ، فالإمام الحسين عليه السلام قطعة من لحم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقتله يعني قتلاً لجدِّه، فيقول:

جاءُوا برأسِكَ يا ابن بنت ... متـرملاً بدمائـه تـرميلا

وكأنّما بكَ يا ابــنَ بنــت قتلُوا جهاراً عامدينَ رســولا[٤]

إنّ الذين أسهموا في قتل الإمام الحســين عليه السلام لم يراعوا هيبة ولا حرمة لجدّه محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد جرّعوه حرارة بمقتل سبطه عليه السلام لا يمكــن أن تبــرد، إذ أثكلــوه بــه، واثاروا حزنه الشديد عليه، كمــا يقــول دعبــل الخزاعي:

لم يَحفَظُوا حَقَّ النبَّــيِّ إذ جَرَّعُــوُه حَــرارةً لا
قتلوا الحُسينَ وأثكَلُوهُ فَالثُّكْلُ الحُسينِ مُبَــدَّدُ[٥]

ولكي لا يترك الشاعر مســوّغاً للأعــداء يكون شفيعاً لهم في عدم معرفتهم بالإمام الحسين عليه السلام ، ومن ثم قتلهم له من دون معرفة باصــله ونسبه، نجده يؤكّد ما قام به الإمام الحســين عليه السلام فعلاً في يوم المعركة، وذلك حين عرّفهم بنفســه وبأنه سبط النبيّ(صلى الله عليه وآلــه وســلم)، كما أنّه ابن الإمام علي وفاطمة الزهراء (عليهما السلام)، ومن ثم يؤكــد الشــاعر قــتلهم الإمــام الحسين عليه السلام عن قصد مبيّت، وليس عــن عــدم معرفة به وبنسبه الطاهر، ولذلك نجد أنّ الشاعر يخاطب قاتليه بأنهم لم يراعوا حقّ الله (تعــالى) فيه حينما قطعوا أوصــاله الشــريفة بالســيوف والرماح، ممّا أدى إلى ان يكون جدّه(صــلى الله عليه وآله وسلم) خصيماً لهم في يوم الحساب:

يا أُمّةً قَتَلَتْ حُســيناً عَنْــوَةً لم تَرْعَ حقَّ اللهِ فيــه فَتَهتَــدي
قتلّوهُ يومَ الطَّفِّ طَعْناً بالقنــا سَلباً وهَبْراً بالحُســامِ المقْصِــدِ
ولطالمــا نــاداهُمُ بكلامِــهِ: جَدّي النَّبيُّ خَصيمُكُمْ في المَوعِدِ
جَدّي النَّبــي، وأبــي علــيٌّ والفَخْرُ فَاطِمَةُ الزَّكيَّةُ مُحْتَدي[٦]

وكان الشاعر دعبل الخزاعي كثير الرثاء للإمام الحسين عليه السلام، وفي الوقت نفسه كان يمتلك مقدرة هائلة على اثارة الحزن والأسى في نفوس السامعين، بما يُثيره- في قصائده- من الموازنات العقلية التي تدور بــين آل بيــت النبــيّ(عليــه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) وقَتَلَتِهم الملعونين في الدنيا والآخرة، ففي إحدى قصائده يتحدث عن أنّ مصاب الحسين عليه السلام في كربلاء هــو الســبب الرئيس الذي جعله منشغلاً عن الغــواني فتركــه غير آبهٍ بهنَّ ، فالقاتلون هم بنو زياد الذين نالوا ثأرهم وأبانوا عن أحقادهم القديمة بقتــل ســبط النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وفي الوقــت نفسه كان أبناء البغايا (القاتلون) يعيثون ويمثّلون بأبناء الحَصَان (فاطمة الزهراء) (عليها السلام)، لذا- وفي مثل اللحظات هذه - تظهر آلام الشاعر بحدّة أكبر، وذلك حين يتأسّى على استشهاد أولاد الزّكيّ، على حدِّ قوله:

لقد شَــغَلَ الــدُّموعَ عــن مُصابُ الأكرَمينَ بني عَلِــيٍّ
أَلاَ تَقِــفُ الــدُّموعَ علــى وذِكرى مَصْرَعِ الحَبْرِ التَّقِيِّ؟
أَلَم يحزُنكَ أنَّ بنــي زِيــادٍ أصابوا بالتِّراتِ بَني النَّبــيِّ
وأن بَني الحَصَــانِ تَعِيــثُ عَلانيةً سُيُوفُ بنــي البَغِــيِّ
فُوا كَمَدي على هَفَواتِ دَهْرٍ تُقَتَّلُ فيــهِ أولادُ الزَّكِــيِّ[٧]

وينفي الصنوبري مقتل الإمــام الحســين عليه السلام على أيدي قاتليه، بوصــفه رجــلاً شــجاعاً باسلاً، ويرى أنّه قُتِلَ بسبب بطش ذلك اليوم الذي ما زال بطّاشاً بهم حتى أتى على آخرهم، وهو في ذلك يستخدم لفظة (حاشا)، والتي أراد بها الإمــام

عليه السلام فهو ابن بنت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، قائلاً:

حين قالوا ابنُ بنتِ أحمد أودى قلتُ حاشا ابنَ بنتِ احمدَ حاشا
ليس من بطشهمْ ثَوى بل ثوى عن بطشِ يومٍ لم ينفكِكْ بَطّاشا
وصُروفُ الأيّامِ تقتحمُ الأخيا سَ بغياً وتهجمُ الأعشاشا[٨]

ويَبعث الصنوبري سلامه إلى قبر الإمام الحسين عليه السلام، بوصفه (السلام) أمراً واجباً على الجميع، فهو سبط الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، كما أنه مات وقد أحرق الظمأ قلبه الطاهر، وحينما قضى عليه أعداؤه كانوا كمَن قضى على الإسلام كله، لأنّ مغرس الإسلام مغرس الإمام عليه السلام نفسه، فيقول:

سلِّم على نازلٍ بالطفِّ منزلُهُ إنّ السلامَ عليه كان مُفترَضا
على الحسينِ على سبْطِ الرَّسُولِ على مقبوضِ مُشْتَهياً للماءِ إذ قُبِضا
مَنْ كان في مَغرسِ الإسلامِ مغرسُهُ قضى على مُهجَةِ الإسلام حين قضى[٩]

كما يذكر الشاعر- في رثائية أخرى- كيف كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يحمل سبطه الحسين عليه السلام على كفّيه وكتفه، ملاطفاً له ومُلاعباً إيّاه، ولكنّه حين تغيّب عنه، ناله الجفاء والاقصاء من بعده من لدن الزمرة السيئة التي لم تَخشَ خالقها فيما فعلت بابن بنت نبيّها(عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام)، وذلك في قوله مبيّناً صعوبة تلك الحادثة على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم):

تغيَّبَ جدُّه عنه فأُقصي بَعدَهُ وجُفي
يعزُّ على مُلاطِفِهِ بأنواعٍ من اللُّطُفِ
على مَن كان يَحمِلُهُ على الكفَّينِ والكَتِفِ
فعالُ العُصبةِ الحُيُف الـ لتي من أحيَفِ الحُيُفِ[١٠]

وبالفعل لو كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) حيّاً وقت واقعة الطفّ، وشاهد بعينيه ما حصل فيها من القتل والأسر لآل بيته (عليهم السلام) لكان الموقف شديداً عليه إلى الدرجة التي يذرف فيها دموعه، وذلك ما تحدّث عنه الشاعر كشاجم حين قال معبّراً عن الفرضية المؤلمة هذه:

فلو كان جَدُّهُمُ شاهِداً لتتَّبَعَ أظعانَهُمْ بالبُكاءِ[١١]

ويرى الشاعر نفسه- في وقت آخر- أنّ قَتَلَةَ الإمام الحسين عليه السلام نشطوا في ارتكاب الجرائم وقتل آل بيت الرسول (عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام) عناداً به وثأراً لما سبق، في الوقت الذي كانوا فيه يتصفون بالكسل عن الهداية، ولا سيما في بداية الدعوة الإسلامية، فيقول:

لقد نَشِطَتْ لِعنادِ الرَّسُولِ رجالٌ بها عن هُداها
[١٢]

ويتساءل الصاحب بن عباد مستغرباً عن كيفية حزِّ رأس الإمام الحسين عليه السلام مع أنّه سبط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي ذلك ما يدلّ على بشاعة الفاعلين وبشاعة أفعالهم الرديئة:

أيُحَزُّ رأسُ ابنِ الرَّسُولِ وفي الورى حيٌّ أمامَ رِكابِهِ لم يُقْتَلِ[١٣]

وخاض كثير من الشعراء العباسيين- في مراثيهم للإمام الحسين عليه السلام- في الحديث عن فرضية رؤية النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ما جرى في واقعة الطفّ، وكان الصاحب بن عباد واحداً من اولئك الشعراء، إذ صّور حال ابنة الإمام الحسين عليه السلام وهي تدعو أباها، كما صوَّر

حال أخته زينب (عليها السلام) وهي تبكي أخاها عليه السلام، وذلك التصوير لو رآه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في حينها، ونظر إلى ما حدث لسبطه عليه السلام ولما حصل مع نسائه من السبي والتعذيب لكان شكا الحال إلى الله (تعالى)ذلك المصاب الجلل، قائلاً:

بنتُهُ تدعو أباها أُختُهُ تدعو أخاها
لو رأى أحمدُ ما كا نَ دهاهُ ودَهاها
ورأى زينبَ وَلْهَى ورأى شمراً سَباها
لشكا الحال إلى اللـ ـهِ وقد كان شكاها(١٤)

ولم يكن قتال الحسين عليه السلام من لدن أعدائه قتالاً له وحده، وإنّما كان قتالاً مع الله (تعالى)، ومع نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومع الإمام علي عليه السلام، فهم جميعاً حلقات في سلسلة واحدة، فالإمام الحسين عليه السلام من المجموعة هذه التي سعت جاهدة في نصر الدين الإسلامي، فقتاله يعني قتال الجميع، واعلان الحرب عليهم كلّهم، وذلك ما تطرّق له الصاحب في إحدى مراثيه قائلاً:

قاتلوا اللهِ والنَّبِيَّ ومولا هم عليّاً إذ قاتلوا ابن الرسولِ(١٥)

وكانت عظمة المصيبة في كربلاء كبيرة، بل فظيعة، اتّسمت بالوحشية من النواحي كلّها، فالقتل وقطع الرؤوس وسبي النساء وغير ذلك من الأفعال التي ارتكبها الآثمون في ذلك اليوم المشؤوم، دفع الشريف الرضي للتعبير عن آلامه وأحزانه في إحدى قصائده في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، إذ خاطب القاتلين بألم كبير بأنّ ما فعلتموه كان جزاءً سيئاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالحسين عليه السلام سبطه، وماهكذا يكون الفعل مع سبط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولاسيما أنهم كانوا يعلمون أنّ الإمام الحسين عليه السلام هو خامس أصحاب الكساء (عليهم السلام)، وعلى الرغم من ذلك قتلوه ومثّلوا بجثته الطاهرة وسبوا نساءه، وفعلوا ما فعلوا من التعذيب وهدر كرامة آل بيته (عليهم السلام) ، فيقول:

ليسَ هذا لِرَسُولِ اللهِ، يا أُمَّةَ الطّغيانِ والبَغي ، جَزَا
[....]
قَتَلُوهُ بَعدَ عِلمٍ مِنهُمُ أنّه خامِسُ أصحاب الكِسا(١٦)

وتناسى الأعداء- عن قصد- جدَّ الإمام الحسين (عليهما الصلاة والسلام) مع قرب العهد بينهما، وقد عبَّرَ مهيار الديلمي عن ذلك، ووصفهم بالطيران لمقتله مع ما يحملون معهم من النفاق والغشّ اللذين ملآ قلوبهم ، وذلك الفعل دفع الشاعر إلى الحزن البالغ إلى الدرجة التي يعلن فيها عن أنّه لن يصادق إلاَّ مَن يحزن حزناً شديداً على الإمام الحسين عليه السلام ، وهو – في اثناء ذلك- يصوّر استشهاد الإمام عليه السلام بهبوب الريح العاصفة في كربلاء لانجاز ذلك الفعل، وبمقتله عليه السلام كان قَتَلَتُهُ يُخرِجُونَ النار التي في صدورهم، فهم- بذلك- كمَن حكَّ جرحَه فأسال الدم منه:

وليس صديقيَ غيرَ ليومِ الحسينِ وغيرَ الأسوفِ
هو الغصنُ كان كمينـاً بَ لدى كربلاء بريح عصوفِ
قتيلٌ بـه غِلّ النفوسْ كما نَغَرَ الجرحَ حَكُّ القروفِ
بكلِّ يدٍ أمسِ قد بايعتْهُ وساقت له اليومَ أيدي
نسوا جدَّه عن عهدٍ قريبٍ وتالّدَهُ مَعَ حقٍّ طريفِ

فطاروا له حاملين النِّفاقَ بأجنحةٍ غِشُّها في [illegible](١٧)

وحينما قطّع قَتَلَةُ الإمام الحسين عليه السلام أوصاله وأوصال مَن نصره، كانوا – بفعلهم هذا – قد قطعوا الاتّصال بينه وبين جدِّه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، بوصفه الحلقة التي تتصل به، وذلك ما طرحه مهيار الديلمي في قوله:

قُطِعَتْ وُصْلَةُ النَّبيِّ بأنْ طَعَ من آل بيته الأوصالُ(١٨)

لقد حزن الشعراء العباسيون كثيراً على ما جرى في يوم الطَّفِّ، ولاسيما الشعراء الذين كانت لهم صلة نسب قوية مع الإمام الحسين عليه السلام كالشريف المرتضى الذي جادل لائميه في حزنه، طالباً منهم عدم لومه، لأنهم لن يحصلوا منه سوى العناء، فدموعه لا يمكن أنْ تجفَّ، وبكاؤه سيستمرّ أبداً، لأنه لا يجد سعادة في الدنيا مع ما حصل لآل البيت(عليهم السلام)، حتّى كأنّهم لم يكونوا من نسل النبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) ، إذ قال:

فيا لائِماً في دمعتي أو مفنّداً على لوعتي واللّوم منه عَناءُ! فكم لرسولِ اللهِ في الطَّفِّ من دمٍ يُراقُ ومن نفسٍ تُماتُ وتُتْلَفُ(٢١)

فما لكَ منّي اليومَ إلاّ تَلَهُّفٌ وما لك إلاّ زَفرةٌ وبكاءُ

وهل ليَ سُلوانٌ وآلُ محمّدٍ شريدُهُمُ ما حان منه ثَواءُ

تُصَدُّ عن الرّوحات أيدي ويُزوى عطاء دونهم وحِباءُ

كأنَّهُمُ نسلٌ لغيرِ محمّدٍ ومن شَعبه أو حزبه بُعداءُ(١٩)

ونجد الشاعر – في مناسبة أخرى– يوجّه حديثه واستغرابه الى بني أُميّة، معرباً عن عجبه من قيامهم بحرب ابن بنت نبيّهم (صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ قادوا الجيوش والخيول لحربه وقتله، ولعلّ الشاعر قصد ذلك الحوار معهم للاعلان عن الجرم الكبير الذي ارتكبوه بفعلهم الوحشي والقبيح بالإمام الحسين عليه السلام :

أنحوَ بني رسولِ اللهِ فيكمْ تقودونَ المسوّمةَ [illegible](٢٠)

وبذلك وجدنا كثيراً من الشعراء العباسيين تحدّثوا عن صلة الإمام الحسين عليه السلام بالنبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، فهو سبطه الذي قتله الأمويون من دون رحمة، أو خشية لا من الله (تعالى) ولا من جدّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكأنهم تناسوا أقوال النبيَّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في آل بيته(عليهم السلام) ، وبذلك فان الدماء التي أُريقَتْ في كربلاء هي دماء النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وما النفوس التي قُتِلَتْ هناك إلاّ وللنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فيها الكثير ، وذلك ما تكلّم عليه الشريف المرتضى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام، إذ قال:

تناسيتُمُ ما قال فيهمْ نبيُّكُمْ كأنَّ مقالاً قال فيهم مُحَرَّفُ

حُزْنُ النّاس باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام:

بما أنّ هول المصاب كان كبيراً، ولا يمكن للنفس الإنسانية تحمله، أو السكوت عنه، فقد غدا الحزن يعمّ الناس، ويتداخل مع صميم حيواتهم، إذ لم يسمع أحد من محبّي آل البيت (عليهم السلام) باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام إلاّ وذرف الدموع، ولا يتذكّر أيّ انسان تقي تلك الفاجعة إلاّ وحزن حزناً شديداً لما جرى في كربلاء في ذكرى واقعة الطّفِّ الأليمة.

ولذلك وجدنا كثيراً من الشعراء العباسيين ممّن نقلوا لنا ذلك الحزن على مرّ الحقب والدهور، فعكسوا – في قصائدهم الرثائية- محنة الناس كلّما جاءت ذكرى عاشوراء، فأظهورا الألم الممضّ الذي يحرق الأكباد حزناً واكباراً لهول تلك الفاجعة وما حدث فيها من ظلم كبير لسبط النبيّ وآل بيته (عليهم الصلاة والسلام)، ومنهم – على سبيل المثال- الشافعي الذي يبعث في إحدى قصائده رسالة إلى الإمام الحسين عليه السلام ، يوضّح فيها أن الإمام عليه السلام قتيل من دون أيّ جرم ارتكبه، ومشبّهاً- في الوقت نفسه – قميصه وكأنه قد صبغ بماء الأرجوان، في دلالة على كثرة الدماء المنتشرة عليه بسبب تعدّد الجراح والاصابات، فأثار ذلك المشهد كلّ مَن يعقل، وكلّ ما لا يعقل، فأصبح الحزن حالاً عامة لدى الجميع كالسيوف والرماح والخيول، حتى ان الجبال كادت أنْ تذوب بسبب حجم المأساة، كما غارت النجوم واقشعرّت الكواكب، وهتكت الأستار وشُقّت الجيوب، ولم يأتِ الشاعر بهذا كله إلاّ ليخبرنا أنّ الحزن كان كبيراً عند الناس إلى الدرجة التي تعدّاهم فيها الى ما لا يعقل كالأمور التي عدّدها الشاعر في قوله:

فَمَن مُبلغٌ عنّي الحُسينَ وإنْ كرهتها أنفسٌ وقلوبُ
قَتيلاً بلا جُرمٍ كأنَّ قَميصَهُ صَبيغٌ بماءِ الأرجُوانِ
فللسيفِ إعوالٌ وللرمحِ رنةٌ وللخيل من بعدِ الصَّهيلِ
تزلزلت الدنيا لآلِ محمَّدٍ وكادت لهم صمُّ الجبالِ تذوبُ
وغارت نجومٌ واقشعرت وهُتّكَ أستارٌ وشقّ جُيُوبُ[٢٢]

وباستشهاد الإمام الحسين عليه السلام فارق النوم الأجفان، وأُصِيبَت العيون بالعمى، والأذان – التي سمعت الخبر- بالصمم، لشدّة وقع النبأ المشؤوم عليها، وفي ذلك قال دعبل الخزاعي:

أيقظتَ أجفاناً وكُنتَ لها وأنمتَ عيناً لم تكُنْ بكَ تَهجَعُ
كُحِلَتْ بمَنْظَرِكَ العُيونُ عَمايَةً وأصمَّ نَعيُكَ كُلَّ أُذْنٍ تَسْمَعُ
ما رَوضَةٌ إلاّ تَمَنَّتْ أنّها لك مَضْجَعٌ، ولخَطِّ قَبرِكَ مَوضِعُ[٢٣]

ولعلّ البيت الأخير أروع ما في الأبيات، لأنه يصوّر حزن الشاعر بحماسة طاغية، إذ يرى الشاعر- لشدّة ألمه وانفعاله- أنّ الرياض كلّها تمنّت أنْ يُدفَن فيها جسد الإمام الحسين عليه السلام الطاهر، في دلالة صريحة على اعتزاز الأرض به، ذلك الاعتزاز الذي هدره أعداؤه وقاتلوه ولم يراعوا نسبه الشريف.

وينتقد دعبل الخزاعي الشعراء الذين يبكون الطلل، ويعدّهم ضالين عن الطريق القويمة،فهم يدّعون الحزن مع أنّهم مرفّهون، وإلاّ فأين الحزن الذي يشعرون به وهم ينامون ويشعرون بالراحة؟ ولذلك يدعوهم للبكاء على الإمام الحسين عليه السلام وآل بيته (عليهم السلام)، فقد بكاهم جدّهم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذلك الملائكة(عليهم السلام) في السماء، فذلك المشهد هو ما يدعو للبكاء الحقيقي، إذ تضعضع الإسلام في استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك بكاه الدين والرفعة وكلّ شيء له قيمة في الحياة، فيقول دعبل في ذلك:

يا واقِفاً يبكي الطُّلولَ بالله تِهْتَ وغابَ عنكَم
كم تُدَّعي حُزناً وأنتَ مُرَفَّهٌ أنْ كُنتَ مَحْزُوناً فما لكَ

هَلاَّ بَكَيْتَ علـى الحُسـينِ هَلاَّ بكيتَ لمَنْ بَكاهُ مُحَمَّـدُ!
فلقدْ بَكَتْهُ في السَّماءِ مَلاَئِكٌ زُهْرٌ كِرامٌ راكِعُونَ وسُـجَّدُ
وتَضَعْضَعَ الإسلام يومَ مُصابِهِ فالدِّين يَبكي فَقْدَهُ والسُّـؤدَدُ[٢٤]

إنّ ما تَعرّض له الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته (عليهم السلام) من بعد جدّهم النبي(صـلى الله عليه وآله وسلم) على أيادي مَن عدَّهم دعبل الخزاعي مجوساً، دعا الملا يين- عبر الأزمـان والعصور- إلـى ذرف الـدموع، وقـد تقطّعـت نفوسهم كلّما مرَّت مناسبة يوم الطفّ من كلّ عام، حزناً وألماً على ما تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام:

يا آل أحمدَ ما لَقِيتُمْ بَعدَهُ من عُصْبَةٍ هُمْ في القِياسِ
كم عَبرَةٍ فاضَتْ لكُـمْ وتَقَطَّعَـتْ يومَ الطُّفُوفِ على الحُسينِ نُفُوسُ[٢٥]

وروّع استشـهاد الإمـام الحسـين عليه السلام الناس، وأفزعهم، وتركهم يذرفون الدماء بكـاءً، وليس الدموع فحسب كما هو المألوف، ولبسـوا السواد وتركوا شَعرهم ينمو فيطول حزنـاً علـى فقده، واستمروا على البكاء والنـواح مـن دون انقطاع، وصوّر ذلك الحزن الشاعر ابن المعتـز في رثائية مؤلمة، رأى فيها أنّ ذلك الحزن كلـه قليل مع الإمام الحسين عليه السلام بوصفه قريباً ويتصل معه بالنسب نفسه، قائلاً:

لَئِنْ كان رَوَّعنـا فقـدُهُ وفاجاهُ مِـن حيـثُ لـم
فكم قد بكينا عليه دمـا بِسُـمرٍ مُثقفـةِ الأكعُـبِ
وبيضٍ صوارمَ مصقولة متى يُمْتَحَنْ وقعُها يَرْسُبِ
وكم من شِعارٍ لنا باسمِهِ يُجَدِّدُ غيظاً على المُـذْنِبِ
وكم من سَوادٍ حَدَدْنا به وتطويلِ شَعْرٍ على المَنكِبِ
ونَوحٍ عليه لنا بالصَّهيلِ وصلصلةِ اللُّجْمِ في مِقْنَبِ
وذاك قليلٌ له من بنـي أبيه ومَنْصبِهِ الأقـربِ[٢٦]

أمّا الصنوبري، فانه يعـد اليـوم الـذي أُستشهِدَ فيه الإمام الحسين عليه السلام يوماً عسيراً على الدين، وأنّ كربلاء ملأت- في ذلك اليوم- صدور المؤمنين- من محبّي آل البيت (عليهم السلام)- كرباً، لما جـرى فيهـا مـن ذبـح لأوليـاء الله الصالحين، ومن سبي للنساء ومـا إلـى ذلـك، فيقول:

يـومَ الحسـينِ علـى ـنِ كنـتَ يومـاً عسـيرا
مـلأتِ واللهِ كربـاً يا كـربلاءُ الصُّـدورا[٢٧]

وللسبب هذا نجد الصاحب بن عباد جاعلاً الدين باكياً الإمام الحسين عليه السلام،والملائكة (علـيهم السلام) يشتكون إلى الله (تعالى) ما حلَّ بالإمـام عليه السلام في يوم الطفّ، وقد اغبرّ الجـوّ، وانقلبـت الأمور الجيدة كلّها إلى سيئة بفعل قتل الإمام عليه السلام على أيادي أبناء البغايا:

والدين يبكي والملائـك والجوُّ أكلَفُ والسِّنونَ جَمادُ[٢٨]

وتتكرر الفكرة ذاتهـا لـدى كثيـر مـن الشعراء العباسيين، ولاسيما الصاحب بن عبـاد ، أعني فكرة بكاء الدين والملائكة (عليهم السـلام) على استشهاد الإمام الحسـين عليه السلام، فقـد بكتـه ملائكة السماء بكربلاء في ذلك اليوم، وبقي الدين الإسلامي متحرقاً لما حصل له، وفي ذلـك دلالـة على شدّة الحزن، ليس عند الناس فقط، بل ما هو أوسع من ذلك بكثير، فالحسين عليه السلام ليس إنسـاناً اعتيادياً كسائر الناس، فيبكيه الناس فقط وإنمـا

همو ابن بنت نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقتله أمرٌ جلل بالمقاييس كلها ،لذا فليس من الغريب أن تبكيه الملائكة (عليهم السلام)، وأن يتحرّق الدين حزناً عليه:

فبكتْ ملائكةُ السَّماءِ والدينُ بين تحرُّقٍ ورَنينِ[٢٩]

وظلت كربلاء رمزاً للهَمِّ الكبير لدى الكثير من الشعراء العباسيين، فهذا الشريف الرضي يخاطبها بأنها مدعاة للكرب والبلاء، بسبب ما حصل فيها لآل البيت(عليهم الصلاة والسلام)، فكم من دماء سالت عليها، وكم من الدمع جرى فيها:

كربلا، لازِلْتِ كَرْباً وبَلا ما لَقِيَ ، عِندكِ آلُ المُصطَفى

كم على تُرْبِكِ لما صُرّعُوا مِن دَمٍ سالَ ومن دَمْعٍ جَرى[٣٠]

لذا يقرّ الشاعر بأنّ الحزن على آل البيت (عليهم السلام) لا يمكن أن يتعرض للنسيان مهما طال الزمن، أو بَعُدَ وقت المصاب، لأنّ واقعة الطفّ ليست أمراً هيّناً على الدين والمسلمين كما مرّ بنا، فمن الصعب أنْ ينسى الناس الرزء العظيم الذي حدث في ذلك اليوم في كربلاء، وما تزال الدموع تتسابق كلّما مرّت ذكرى تلك الحادثة الأليمة، ولا يمكن أن تجفّ في يوم من الأيام:

لا أرى حُزْنَكُمُ يُنْسَى، ولا رُزْءَكم يُسلى ، وإنْ طالَ

قد مضى الدَّهرُ، وعَفَّى لا الجَوى باخَ، ولا الدَّمعُ رَقا[٣١]

ومصاب الإمام الحسين عليه السلام أبكى السماوات، وكادت الجبال أنْ تزول لهول الفاجعة لدى الشاعر مهيار الديلمي الذي يقول :

وشهيد بالطَّفِّ أبكى تِ وكادت له تزولُ الجبالُ[٣٢]

الأحزان التي لا تنتهي، لأنّه كلّما تذكّر الانسان تلك الحادثة الأليمة كان بمثابة مَن سُقِيَ السمّ فدخل في الهلاك، وذلك تعبير الشريف المرتضى من خلال قوله:

فكم أجرى لنا عاشُور وقطّع من جوانحنا النِّياطا

وكم بتنا به واللّيلُ داجٍ نُمِيط من الجَوى ما لن

يُسقِّينا تذكّرُهُ سِماماً ويُولِجُنا توجّعهُ الوِراطا[٣٣]

وكان المرتضى كثيراً ما يُبدي توجّعه ويُظهر أحزانه لجدِّه عليه السلام [٣٤] ، شأنه شأن الكثير من الشعراء العباسيين الذين أبانوا – في أشعارهم– عن الحزن الكبير الذي مرّت به الأمّة الاسلامية بفقد الإمام العظيم عليه السلام ومن دون ذنب سوى الوقوف الى جانب صحّة المذهب والعقيدة الاسلامية الحقيقية.

الزمرة القاتلة ومواقف الشعراء العباسيين:

لم ينسَ الشعراء العباسيون قتلة الإمام الحسين عليه السلام في اثناء رثائهم له، بل خصّصوا مساحاتٍ واسعة للحديث عنهم، وفضاءات رحبة لابداء آرائهم حول ما فعلوه من الجرائم الكبيرة، كما أعطوهم صفات رديئة، وأنذروهم بعذاب كبير، وهو واقع عليهم لا محالة في الدنيا قبل الآخرة، ومن أولئك الشعراء ديك الجنّ الذي حاجج قاتلي الإمام الحسين عليه السلام بأنّهم سيُحشَرون مع الإمام عليه السلام، وستتوجّه لهم الأسئلة عن سبب قتلهم إيّاه، وفي ذلك الوقت ماذا ستكون إجاباتهم؟

لذا نجده يدعو عليهم – لأفعالهم الشنيعة

– بالويل والنار والثبور، لأنهم أسلموه الى مأساة كبيرة بدلاً من أنْ ينصروه ، لمعرفتهم به وبنسبه الشريف، يقول:

لابُدَّ أنْ يُحشَـرَ القَتيـلُ يُسألَ ذو قتلهِ عن السَّـبَبِ
فالْوَيلُ والنّارُ والثُّبُـورُ قـد أسـلَمُوهُ للجَمْـرِ[35]

وكثيراً ما كان ديك الجن يدعو على قاتلي الحسين عليه السلام ، ويصوّر أفعالهم يوم قتلوه، وكانوا يستبشرون بذلك ، ومن ذلك قوله يدعو عليهم:

ماتَ الحُسينُ بأيـدٍ فـي طولٌ عليه وفي إشـفاقها
لادَرَّ درُّ الأعادي عندما وتَرُوا ودَرَّ دَرُّكِ ما تَحْوينَ يا حُفَرُ[36]

أمّا دعبل الخزاعي، فانه لم ينسَ مسـرى الأعداء لقتال الإمام الحسين عليه السلام مع أنهم يقولون عنه: إنّه سيّد البشر، فهكذا جازوا نبيّهم (صـلى الله عليه وآله وسلم)، فوصفهم وصفاً دقيقاً يليق بهم وبأمثالهم، إذ قال عنهم (أمة السـوء)، فقـد كانوا كالذئاب في أبناء النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ولم يحفظوا الأمانة ، بل انتهكوها أيّمـا انتهاك، فبئساً لكلّ مَن اشترك في هدر دم الإمـام عليه السلام من العرب جميعاً، لأنهم كانوا كالمقتسـمين على الناقة المجزورة ، وكـأنّهم لا يـدركون أنّ هؤلاء أحفاد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسـلم)، فكان فعلهم فيهم كفعل الغزاة مع الروم والخزر.

وعلى النحو هذا صوّر دعبـل الخزاعـي أحقاد بني أُمية من خلال ما فعلوه في يوم الطفّ، ومن بعدهم تكلّم على افعال العباسيين التي لا تقلّ شناعة – في تعـاملهم مـع أهـل البيـت(عليهم السلام)– عمّا فعله بنو أميّة بالإمام الحسين وأهل بيته (عليهم السلام) ، قائلاً:

أنسى الحُسـينَ ومَسْـراهُمْ وهم يقولونَ: هذا سيِّدُ البَشَرِ
يا أُمَّةَ السُّوءِ مـا جازيـتِ حُسْنَ البَلاءِ علـى التّنزيـلِ
خَلَفْتُموهُ على الأبناءِ حـينَ خَلَفْتُموهُ على الأبناءِ حـينَ
وليسَ حَيٌّ مِنَ الأحياءِ نَعْلَمُهُ منْ ذي يَمانٍ ومن بكْرٍ ومنْ مُضَـرِ
إلاّ وهُمْ شُركاءٌ في دِمـائِهُمُ كما تَشارَكَ أيسارٌ على جُـزُرِ
قَتْلاً وأسْراً وتَحْريقاً ومَنْهَبَةً: فِعْلَ الغُـزاةِ بـأرضِ الـرُّومِ
أرى أُميَّةَ مَعْذُورينَ إنْ قَتَلُوا ولا أرى لبَني العَبّـاسِ مِـنْ
أبنـاءُ حَـرْبٍ ومَـرْوانٍ بَنُـو مُعَـيطٍ ، وُلاةُ الحِقـدِ
قَومٌ قَتَلْتُم على الإسلامِ أوَّلَهُمْ حتّى إذا استمكَنُوا جازوا على الكُفُـرِ[37]

ولم يكتفِ الشاعر بـذلك، وإنمـا يبعـث رسالة شعرية– عن طريق رثائه الإمام الحسـين عليه السلام– الى (عُمر بن سعد)– مع الدعاء بتعـذيب روحه– مفادها أنّه سيلقى عذاب النار، فضلاً عن اللّعنات، بما فعله مع رأس الإمام عليه السلام الطـاهر، فقد قام برفعه على الرمح بيده الآثمة، ولذلك يعلن الشاعر عن استمراره بالدعاء عليه وعلى كل مَن ساعده في قتل الإمام عليه السلام طوال الدهر، لضلالهم عن الهدى والطريق الصحيحة، وبما فعلوه مـع سبط النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، فيقول:

فقُلْ لابنِ سَعْدٍ – عَـذَّبَ سَـتَلْقَى عـذاب النّـارِ
سأُقْنُتُ طُولَ الدهْرِ مـا وأُقْنَّتُ بالآصالِ والغُـدُواتِ
علَى مَعْشَرٍ ضَلُّوا جميعاً وألْقَـوا رَسـولَ اللهِ فـي[38]

ويبدع دعبل الخزاعي في تصوير حال آل الحسين عليه السلام في اثناء المعركة التي دارت بينـهم (عليهم السلام) وآل أُميّة، من خلال نقل المعانـاة التي مرُّوا بها في تلك الأيام العصبية، وتصـوير

حالهم وذهولهم لما جرى، فضلاً عن نقل كلام الطاهرة (زينب بنت الإمام الحسين) (عليهما السلام) من خلال محاورتها لجدّها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) شاكيه له ما فعله (الشَّمِر) ، إذ تولّى ذبح الإمام الحسين عليه السلام بيده الملعونة، موحِّداً الله (تعالى) في اثناء ذلك! من أجل الحصول على جائزة (عبيد الله بن زياد) الذي وصفه الشاعر بـ(اللعين)، فضلاً عن تصوير حال الإمام زين العابدين بن الإمام الحسين(عليهما السلام) الذي كان مريضاً وقتذاك، ولم يَسْلَم من وضع القيود والأصفاد في يديه ورجليه اثناء ذبحهم لعائلته كلّها وسبي النساء، ويخلص الشاعر من هذا كله الى التوجّه الى الله (تعالى) بوصفه (سبحانه وتعالى) الرقيب على ما جرى، والشاهد على ظلم بني أُميّة لآل البيت(عليهم السلام)، وذلك في قوله على لسان زينب (عليها السلام):

ياجَدُّ! ذا نَجْلُ الحُسينِ مُعَلَّلٌ ومُغَلَّلٌ في قَيدِهِ ومُصَفَّدُ
يَرنُو لوالِدِهِ ويَرنُو حالَه(؟) وبنُو أُميَّةَ في العمى لم
ياجَدُّ! ذا شَمِرٌ يَرُومُ بفَتْكِهِ ذَبْحَ الحُسينِ فأيُّ عَينٍ
ليَحُوزَ جائزَةَ اللّعينِ(؟) لَعَنَ المُهَيمنُ ما به يَتَضَهَّدُ
حتّى إذا أهْوَى عَلَيهِ بسيفِهِ نادى بأخْفَضِ صَورتِهِ: يا أوحَدُ
يا خالِقي أنتَ الرّقِيبُ عَليهِمُ في فِعْلِهِمْ ظُلْماً، وإنّكَ تشهَدُ[39]

كما يخاطب الشاعر الإمام الحسين عليه السلام بأنّ له مودة في قلوب ذوي العقول الذين عرفوا الحقّ واهله، وفي الوقت نفسه يدعو على أعداء الإمام عليه السلام بكره الناس لهم، وبالدمار، قائلاً:

ولكَ المَودَّةُ في قُلوبِ ذَوي النُّهى وعلى عَدُوِّكَ مَقْتَةٌ ودَمارُ[40]

وعُرِفَ دعبل الخزاعي بكثرة الكلام على قتلة الإمام الحسين عليه السلام من خلال مراثيه فيه، مصوّراً دناءتهم وسوء أفعالهم التي تجاوزت الحدود كلها، وهو – في اثناء ذلك– يعطي آراءه فيهم متوعّداً إيّاهم بالعذاب الذي ينتظرهم جرّاء ما كسبته أياديهم من الاثم بقتل سبط النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته (عليهم السلام).

ومن ذلك قصيدته التي صوّر فيها إقبال أولئك الأعداء من الشام، وقصدهم قتل الإمام الحسين عليه السلام، قائلاً: إنّ قائدهم إبليس ، لأنهم تركوا الإمام الحسين عليه السلام مقطّع الأوصال تحت حرارة الشمس، لذا طلب أنْ تحلّ عليهم اللعنة لفعلهم ذلك، ثم يتوجّه بالحديث لهم مباشرة، شاتماً إيّاهم، وداعياً عليهم بالويل لقبولهم بالنار التي سَيُذَلَّونَ بها، إذ باعوا المبادئ التي فيها عزّ الحياة والنفوس، جهلاً منهم، فبايعوا (يزيد) بيعة خاسرة، وقد خسروا أيضاً، فضلاً عن خسارة مَن بايعوه، لأنه سيرقد تحت الجحيم، ثم يخلص الى مخاطبته آل البيت(عليهم السلام) داعياً لهم بالصبر الذي سيجعل الدولة فيما بعد على الظالمين ممّا يؤدّي الى انتصار الحقّ على الباطل، قائلاً:

جاؤُوا من الشّامِ المَشُومَةِ بالشُّؤمِ يَقدُمُ جُنْدَهُمْ إبليسُ
لَعِنُوا، وقد لُعِنُوا بقتلِ [....] تَرَكُوهُ وهْوَ مُبَضَّعٌ مَحْمُوسُ
تبًّا لكم، يا ويلَكُمُ، أرَضِيتُمُ بالنّارِ؟ ذَلَّ هُنالِكَ المَحْبُوسُ

بعْتُمْ لدُنيا غَيرِكُم، جَهْلاً لكُمْ، عِـزَّ الحيـاةِ، وإنَّـهُ لَنَفِـيسُ
أخْسِرْ بها مِن بَيعَـةٍ أُمَويَّـةٍ لُعِنَتْ، وحَـظُّ البـايعينَ خَسِـيسُ
بُؤْساً لِمَنْ بـايَعْتُمُ، وكـأنَّني بإمامِكُمْ وَسْـطَ الجحِـيمِ حَبِـيسُ
[....]
صَبْراً موالِينا فسوفَ يُـدِيلُكُمْ يَومٌ على آلِ اللَّعِـينِ عَبُـوسُ[41]

وبسبب هول الفعل الـذي أحدثـه قـاتلو الإمام الحسين عليه السلام، نلحظ أنّ الصنوبري يطلـق على قائد جيوش الأعداء اسم(إبليس) أيضاً، كمـا فعل دعبل الخزاعي من قبله، وفي ذلك دلالة على أنّ الانسان لا يمكن أنْ يفعـل الخطيئـة الكبيـرة هذه(قتل سبط النبي) (صلى الله عليه وآله وسلم)، فابليس وحده القادر على ارتكاب مثل المعصـية العظيمة هذه، فمَن ذَبَحَ الإمام الحسين عليه السلام يشبه إبليس من حيث صعوبة الفعل وتجرده من صـفة الاعتيادية، ولذلك تعجّب الصـنوبري مـن عـدم ارتجاف اصابع (الشَّمِر) في اثناء ذبحه الإمام عليه السلام ، وكيف أنّه لم يرتعب وهو يؤدي فعلـه الكبيـر ذلك، فيقول:

استطاشَ اللَّعِينُ إبليسُ مـنهم غيرَ نائينَ عنه مهما استطاشـا
استخفَّ الرؤوسَ مـنهم فضـاهَتْ حين ضاهَتْ في الخفَّـةِ الخَشاشـا
منع المَرقَدَ انتعاشُ أُيومٍ من همـومٍ فُقْـنَ الأيـوم
كيف ما أُرعِشَـتْ أنامِـلُ شـمرٍ فأبتْ أنْ تطيعَ فيه ارتعاشا
كيف لم ترتَهِشْ من الرعب كفّـا هُ فيُكفاهُما الحُسينُ ارتهاشا[42]

ثم يخاطب الصـنوبري – فـي قصـيدة أخرى– إبليس (يزيد) قائلاً: إنّك يا يزيـد مهمـا اقترضت من الأحقاد والعداوات والقتل ، ففي يوم من الأيام سَيُسْتَرْجَع منك الذي اقترضته، بمعنـى سيأتيك يـوم تلاقـي فيـه مثـل الـذي فعلتـه بالحسين عليه السلام ، مثلما قام (المختار) بقتل(عبيد الله بن زياد) بعد قتله لآل البيت (عليهم السلام)، فغداً سترى يا يزيد جزاء نقضك العهد مع الإمام عليه السلام، لأنّ العهد طوق يخنق مَن نقضه، يقول:

يزيدُ مهما اقترضتَ اليومَ مـن ربضتَ ممّا يلي الدّنيا لتحميَها فالمرءُ مُسْتَرجَعٌ منه الـذي كالكلبِ من حيثُ لاقى جيفةً
فملَّ منكَ غريضُ الملكِ معتدياً مامِلَّ من لعنـةٍ يومـاً ولا
وابنُ اللّعينِ عبيدُ اللهِ قد قـرض ـمختارُ مُدَّتَـهُ بالسّـيفِ
بعد اعتراضِ عبيد اللهِ سـادَتَنا بالخَيلِ وهو يراهـا للـرَّدى
بخيلِ إبليسَ هاتيك التي رَكَضَتْ لما تراءَى لها إبلـيسُ قـد
من كُلِّ مُتّفِضٍ للحربِ وَفْضَـةٍ عَمايةٍ وعمىً عمّا له اتّفضا
يا ناقضاً عهدَ مولانا وسـيِّدِنا غداً يُطَوَّقُ طوقَ النقضِ من نَقَضـا[43]

إنّ الذين بغوا في قتـل الإمـام الحسـين وأهله (عليهم السلام) وهدروا دمـاءَهم ظلمـاً، سـتكون عـاقبتهم مشـؤومة حتمـاً، فالإمـام الحسين عليه السلام هو ابن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أوصى له النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بالولاية من بعده، فكانت خير وصية، لـذا فمن الكبائر قتل ابنه، ومن دون شـك أنّ قَتَلَتَـهُ سينالهم عـذاب عظـيم عظـمَ المصـيبة التـي ارتكبوها، يقول الصنوبري:

إنّ الذين بغوا إراقتها بغـوا مشئومة [كـذا] العقبـى علـى قتل ابنِ مَنْ أوصى اليه خيرُ مَـنْ أوصـى الوصـايا قـطّ أو يوصـيها[44]

وعلى الرغم من دعاء الشـاعر كشـاجم على قتلة الإمام الحسين عليه السلام بالعمى والشّلل، نجده يخبرهم بأنّ الله(تعالى) سيجادلهم في قتله في يوم

الحساب، فهل سيتمكنون من جداله يومئذ؟

ثم يتوصل الشاعر لاخبارهم بأنّ آل البيت(عليهم السلام) الذين استشهدوا على أيديهم سيكون مصيرهم الجنة، في الوقت الذي سيغدون فيه في عذاب الحجيم، وذلك في قوله:

فلا بُوعِدَتْ أعينٌ مِن عَمىً ولا عُوفِيَتْ أذرعٌ مـن شَـلَلْ

[....]

غَداً يتولّى الإلـهُ الجِـدا لَ إنْ كُنتُمُ مِن رِجـالِ الجَـدَلْ

فَيُعْلَم مَن في ضَلالِ النّعِيمِ ومَنْ في الجَحِيمِ عليهِ ضُلَلْ[٤٥]

وكان الدعاء على القتلة الآثمين أكثر مضمون تطرّق لـه الشعراء العباسيون في قصائدهم التي رثوا بها الإمام الحسين عليه السلام والتي تحدّثوا فيها عن أولئك القتلة، ومنهم(الشعراء) الصاحب بن عباد الذي دعا عليهم بالقبح، كونهم خذلوا الحسين عليه السلام، فضلاً عن لعن مَنْ تجرّأ منهم وضرب ثنايا الإمام عليه السلام، قائلاً:

قا قَـبَّحَ اللهُ أُمَّـةً خَـذَلَتْ سَـيِّدَها لا تريـدُ مَرضـاهُ

يا لَعَنَ اللهُ جيفـةً نجسـاً يَقْرَعُ مِن بُغْضِهِ ثنايـاهُ[٤٦]

وأظهرت النتائج أنّ قَتَلَةَ الإمام الحسين عليه السلام كانوا من أبناء البغايا، ولذلك نجد الصاحب بن عباد متحدثاً عن (ابن زياد) وعن ضربه الإمام الحسين عليه السلام، مع أنّها كانت موضع تقبيل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) له فضلاً عن حديثه عن بني أُميّة الذي قطعوا بسيوفهم – شرايين أبناء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، واعتلت عليهم، وبعد ذلك يدعو الشاعر شيعة آل البيت(عليهم السلام) الى عدم التأسف على ما جرى، وأنْ يثقوا بالله (تعالى) ولا يتعجّلوا، ففي يوم قريب سيعاقب الأعداء وستكون دارهم في قعر الحجيم، في الوقت الذي سينعمون فيه مع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وآله(عليهم السلام) في أكرم مكان،ألاَ وهو الجنة ، قائلاً:

نَكَتَ الـدعيُّ ابـنُ البغـيِّ هِيَ للنبيِّ الخَيرَ خيرُ مُقَبَّلِ

تُمضي بنو هنـدٍ سـيوف أوداجِ أولادِ النبيِّ وتعتلي

[....]

يا شيعةَ الهادينَ لا تتأسَّفِي وثِقِي بحَبْلِ اللهِ لا تَتَعَجَّلِي

فغـداً تَـرَوْنَ الناصـبينَ قَعْرُ الجحيمِ من الطّبـاق

وتُنعَّمُونَ مع النبـيِّ وآلِـهِ في جَنَّةِ الفردوسِ أكرَمِ مَوئِـلِ[٤٧]

ويطلب الشاعر – في قصيدة أخرى– من كربلاء أن تتحدّث عن الكرب الذي أصاب آل البيت(عليهم السلام) في يوم الطفّ، فالأسد (الإمام الحسين عليه السلام) الذي تربى في ظل النبي(صلّى الله عليه وآله وسلم) والوصي علي بن أبي طالب عليه السلام، قتله كلب من كلاب زياد، فيا للمفلرقة العجيبة التي عبّر عنها الشاعر بقوله هذا:

يا كربلاءُ تحدّثي ببلائِنـا وبكربنا انّ الحديثَ يعـادُ

أسدٌ نماهُ أحمدٌ ووصـيُّهُ أرداهُ كلبٌ قد نماهُ زيـادُ[٤٨]

وكان العقاب الذي ينتظر قاتلي الإمام الحسين عليه السلام حاضراً دوماً في قصائد الشعراء العباسيين ولعلّ أبدع ما جاء به الصاحب بن عباد في المضمون هذا الأبيات التي تحدّث فيها عن مجيء الزهراء (عليها السلام) في يوم المحشر وهي تنادي ربَّها(تعالى) وتسأله عن سبب ذبح أبنائها، طالبة القصاص من قَتَلَتِهِم، فيأمر

الله(تعالى) المَلَكَ المسؤول عن النار باشعالها وادخال المسؤولين عن ذبح آل البيت(عليهم السلام) فيها، وبذلك يكون جزاؤهم جرّاء فعلهم الشنيع، وقد تحدث الصاحب عن ذلك بعد أن وضّح الكرب العظيم الذي كان في كربلاء، كما كان ثقلاً على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، والذي أبكى جبرائيل عليه السلام ، قائلاً :

يا لكربَ بكربلاء عظيمٍ ولرزءٍ على النبيِّ ثقيلِ
كم بكى جبرئيلُ ممّا في بنيه صلُّوا على جبرئيلِ
سوف تأتي الزهراءُ مَ إذا حان محشرُ التعديلِ
وأبوها وبعلُها وبنُوها حولَها والخصامُ غير قليلِ
وتنادي يا ربّ ذُبِّح أولا دي لماذا وأنت خيرُ مُديلِ
فيُنادي بمالكٍ ألْهب النّا رَ وأجِّجْ وخُذْ بأهلِ الغلولِ
ويُجازى كُلٌّ منهُ من عقابِ التخليد والتنكيلِ(٤٩)

أما الشريف المرتضى، فانه حين كان يرثي جدّه الإمام الحسين عليه السلام، ذاكراً قاتليه، بدا مختلفاً عن الشعراء الآخرين إلى حدٍّ بعيد، إذ تملؤه الحماسة المشوبة بحزن لا يوازيه حزن لدى غيره من الشعراء، لأنه من نسله الطاهر، وهو يوجه- في قصيدته- رسالة إلى الأُمويين مفادها أنّكم يا أبناء حرب قد امتلأت قلوبكم بالأحقاد التي أظهرتموها يوم الطفّ، ولكن لا تظنّوا نسيان ما فعلتموه بالامام الحسين عليه السلام، فدم الفاطميين لا يمكن أن يضيع هدراً، فحتى الخيل والسيوف والرماح تأبى ذلك، ولهذا فانكم لن تتساوى مراتبكم معَ مَنْ ذبحتم، ولكن شاءت الأقدار أنْ يكون الأمر على ما كان عليه في ذلك اليوم المشؤوم، وقد سبقكم كسرى وقيصر في المُلك، ولكن لم يدم لهما كما سوف لن يدوم لكم أيضاً، وليس لكم إلاّ الهجاء من الناس جميعاً بعد فعلكم الغادر بآل البيت (عليهم السلام) الذي سيبقى بقاء البشرية إلى يوم القيامة:

فقل لبني حربٍ وفي القلب منهمُ دفائنُ تبدو عن قليلٍ وتظهرُ
ظننتمْ وبعض الظّنّ عجزٌ وغفلةٌ بأنّ الذي أسلفتُمُ ليس يُذكرُ
وهيهات تأبى الخيلُ والبيضُ والقنا مجاري دمٍ للفاطميين يُهْدَرُ
ولستمْ سواءً والذين غلبتُمُ ولكنّها الأقدارُ في القومِ تُقدَرُ
وإنْ نلتموها دولةً عجر فيَّةً فقد نال ما قد نال كسرى وقيصرُ
وليس لكم من بعد أنْ قد غدرتُمُ بمَنْ لم يكن يوماً من الدّهرِ يغدُرُ
سوى لاماتٍ آكلاتٍ لحومكم وإلاّ هجاءٌ في البلاد مُسَيَّرُ(٥٠)

وكان المرتضى ينماز بأسلوبه الخاص في رثاء الإمام الحسين عليه السلام ، ويظلّ مؤكداً قضية نالت اهتمامه، وهي أنّ قاتلي جدِّه عليه السلام من حطب النار، لأنهم قتلوا ابن بنت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، سواء أكان (الشَّمِر) الذي تولى ذبح الإمام عليه السلام أم (عُمر بن سعد) الذي رفع الرأس الشريف على الرمح، والذي باع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالقليل على حدِّ قول المرتضى نفسه:

وكم لكُمُ من بعد شِمْرٍ مرى دماءَكمْ في الترب من شِمْرِ
وَيْحَ ابنِ سَعْدٍ عُمْرٍ إنَّهُ باعَ رسولَ اللهِ بالنَّزْرِ
وبغى عليهِ في بني بنتِهِ واستلَّ فيهم أنْصُلَ المكْرِ
فهو وإنْ فاز بها عاجلاً من حَطَبِ النّارِ ولا يدري (٥١)

وليس غريباً أنْ يتكلّم الشعراء العباسيون على الزمرة القاتلة والغاشمة بمثل الكلام هذا،

فسوء الفعل الذي ارتكبوه أحدث ردّة فعل عنيفة لدى الناس حتى يومنا هذا، ولاسيما الشعراء، فلا غرابة أنْ يتوعّدهم الشعراء العباسيون بالعذاب الشديد والوعيد بالنار، فضلاً عن الدعاء عليهم دعوات مختلفة كما رأينا فيما سبق من النصوص الشعرية(٥٢).

شجاعة الإمام الحسين عليه السلام :

صحيح أنّ الإمام الحسين عليه السلام أستشهد في تلك الواقعة الأليمة هو ومن كان معه، ولكن ذلك لا يعني أنّهم لم يقاتلوا أعداء الله (تعالى) وأعداءَهم الذين سيطرت عليهم جيوش ابليس وشياطينه في تلك الأيّام الحُرم، بل على العكس من ذلك فقد قاتل الإمام الحسين عليه السلام وأخوته وأصحابه ومَن تطوّع لنصرته من جيش الأعداء قتالاً باسلاً، حتّى كبّدوهم خسائر كبيرة، جعلتهم (الأعداء) يمارسون الأساليب غير المشروعة في القتال ، من أجل الانتصار عليهم!

إنّ الشجاعة التي تمتع بها الإمام الحسين عليه السلام ومَن كانوا معه جميعاً، كانت مدار اعجاب الشعراء العباسيين ، الذين تحدّثوا عنها بفخر شديد، فعكسوا لنا قيمة البطولة الحقيقية، ولاسيما إذا ما علمنا أعداد جيوش معسكر العدو الهائلة قياساً بعدد أنصار الحسين عليه السلام الذي كان ضئيلاً جداً ، فهذا السيد الحميري يتحدث عن شجاعة الإمام عليه السلام يوم قام خطيباً بأصحابه، وطلب منهم الرحيل والرجوع إلى بيوتهم، لأنه هو المطلوب من لدن الأعداء وليس هم، وذلك – قطعاً- من قبيل شجاعة الإمام عليه السلام، لأنّ الإنسان في مثل الحال هذه بحاجة إلى المؤيدين والأنصار، في الوقت الذي يطالبهم فيه بتركه وحيداً رافةً بهم وإشفاقاً عليهم من الموت المؤكد الذي ينتظرهم، غير أنّ أنصاره كانوا من الشجاعة بحيث رفضوا الإذعان لطلبه منهم، وأبوا إلاّ أنْ ينصروه ليحظوا برضاه ورضا جدّه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبالفعل بقي معه عدد من الذين لم يفارق الإيمان قلوبهم، وقاتلوا حتى نالوا الشهادة:

لستُ أنساهُ حينَ أيقنَ بالمو ... ت دعاهم وقام فيهم خطيبا

ثم قال ارجعوا إلى أهلكم ليـ ... ـس سوائي أرى لهم مطلوبا

فأجابوهُ والعيونُ سكوب ... وحُشاهم قد شبَّ فيها لهيبا[كذا]

أيّ عذرٍ لنا غداً حين نلقى ... جدَّكَ المصطفى ونحن حروبا[كذا][٥٣]

ويصوّر لنا الصنوبري شجاعة الإمام الحسين عليه السلام بدقة متناهية، وذلك في قصيدته الرثائية التي تكلم فيها على مهاجمة جيوش (يزيد) لمعسكر الإمام عليه السلام آملين تخويفه عليه السلام ومفاجأته بالأعداد الكبيرة، متمنين قتله والتغلب عليه بسرعة كبيرة، غير أنّ ذلك لم يتمّ لهم كما أرادوا بفضل الشجاعة الإلهية الكبيرة التي تحلّى بها الإمام الحسين عليه السلام، فإذا به هو مَن فاجأهم ببسالته وشدّة صبره،إذ كان ثابت الجأش مع أنصاره جميعاً، فقد بدؤوا بمقارعتهم وقتالهم ببسالة منقطعة النظير، ولاسيما الإمام الحسين عليه السلام، فقطع رؤوسهم مدافعاً عن نفسه ونسائه، حتّى توهّم الأعداء أنّ الإمام عليّاً عليه السلام هو الذي يقاتلهم وليس ابنه الحسين عليه السلام،لذا ابتدؤوا

غدرهم والعمل بأساليبهم غير المشروعة في قتاله، فقطعوا عليه طريق الفرات ليقتله الظمأ حتى لا يتمكّن من قتالهم، لعلمهم بأنّهم لم يتمكّنوا من التغلّب عليه إلاّ بالأسلوب الجبان هذا، وبذلك غادروه صريعاً على رمال الصحراء، الأمر الذي آذى جدّه النبيّ(صلى الله عليه آله وسلم) ، فقال:

ما ذُكرت الحسينَ بالطفِّ إلاّ ... جاشَ صدري بما ذكرتُ وجاشا
حين أعطى الأعنَّةِ الخيلَ أوبا ... شُ يزيدٍ تباً لهم أوباشا
طمعاً أنْ يُلَقَّبُوا نُصَّاحاً ... ليزيدٍ فلُقِّبُوا غُشّاشا
ورجاءً أنْ يُدهشوا المنجدَ ... دَ الذي ليسَ يَرْهَبُ الإدهاشا
فلقوا منه أثبتَ الناسِ جيشاً ... حين يُلْقى، وأثبتَ الناسِ جاشا
حُوَّلاً قُلَّباً يقارع مَنْ قا ... رعَ لا هائباً ولا طيّاشا
عالياً أرؤسَ الكباشِ بشَدَّا ... تٍ يُغادرْنَ كالنعاجِ الكباشا
ذائداً عن حُشاشَةِ النّفسِ ... لم يَدَعْ للنفوسِ منهم حُشاشا
فتظنّوا من صَولَةِ ابنِ عليٍّ ... فيهمُ أنَّهُ عليٌّ عاشا
ناوَشُوهُ دون الفراتِ ولولا ... سابِقُ الحُكمِ ما أطاقوا النِّواشا
فَثَنى مِن عنانِهِ وهو عَطْشا ... نُ وليستْ منه الرماحُ عِطاشا
ودَّعَتْهُ على غشاشٍ نساءٌ ... ما اشتفى مِن وداعهنَّ غِشاشا
كلّما رامَ للنساءِ وداعاً ... كامَشُوهُ دونَ الوداعِ كِماشا
غادروا ابنَ النبيّ مفترساً فُرْ ... ش الصحاري يا هولَ ذاك افتراشا
وفَروا منه مَوضِعاً كان ... جدَّه أن يحسَّ فيه انخداشا(٥٤)

كان باستطاعة الإمام الحسين عليه السلام الاستسلام وحقن الدماء، إلاّ أنّ صدق المبدأ والثبات على العقيدة حالا دون فعل ذلك، فضلاً عن الشجاعة التي تحلّى بها، فرأى أنّ العيشَ في الذّلِّ قتلٌ له، لذا آثر القتال مع علمه ويقينه بأنّهم سيتغلبون عليه، لأنه وجد الحياة الحقيقية حين يموت عزيزاً ومن دون الشعور بذلّ الاستسلام لأعداء الإسلام، وذلك ما أقرّه الشاعر ابن نباته السعدي بقوله:

والحسينُ الذي رأى القتل في العزْ ... زِ حياةً والعيشَ في الذُلِّ قَتْلا(٥٥)

فالإمام الحسين عليه السلام وكل مَن قاتل معه في يوم الطفّ آثروا الحياة الكريمة والموت بعزٍّ على العيش الذي يختلط بالذّل والهوان، ولذلك قاتلوا حتى آخر رمق من حياتهم، فلم يتذوقوا طعم الموت إلاّ بعد أنْ أذاقوه لأعدائهم، فقتلوا الأبطال في معسكر الأعداء، ولم يثنهم خوف أو سلاح، يقول المرتضى في المعنى هذا:

لم يطعموا الموتَ إلاّ بعد أنْ حطموا ... بالضَربِ والطّعنِ أعناق الصَّناديدِ(٥٦)

وكثيراً ما كان الشريف المرتضى يتحدث عن يوم الطفّ في قصائده، فيذكر الرياح التي ساقت الموت معها للإمام الحسين عليه السلام وأصحابه الكرام، الذين جاءت بهم الخديعة والدهاء فجدّوا في سيرهم وشربوا ماء الغدر على أيادي المخادعين، ولكنهم لم يألوا جهداً في الدفاع عن أنفسهم وإمامهم عليه السلام، فقاتلوا ببسالة منقطعة النظير، ونالوا من أعدائهم الغادرين وقضوا على الكثيرين منهم قبل استشهادهم ونيلهم الجنة كما يقول المرتضى:

ذكرتُ بيومِ الطَّفِّ أوتادَ أرضِهِ ... تَهُبُّ بهمْ للموتِ نكباءُ
كرامٌ سُقوا ماءَ الخديعَةِ ... وسيقُوا إلى الموتِ الزُّؤامِ
فكم مُرْهَفٍ فيهمْ ألَمَّ بحدِّهِ ... هنالك مسنونُ الغِرارين
ومعتدلٍ مثلِ القناةِ مُثَقَّفٍ ... لواهُ إلى الموتِ الطويلُ

قَضَوا بعد أنْ قَضَّوا مُنىً من ولم ينكلوا يوم الطّعانِ
وراحوا كما شاءتْ لهم أرْيَحِيَّةٌ ودَوْحَةُ عزٍّ فرعُها [illegible] (٥٧)

إذن، كان المرتضى يؤكد دوماً- في قصائده في رثاء الإمام الحسين عليه السلام- أن الإمام الحسين عليه السلام والذين قاتلوا معه كلّهم مقاتلون شجعان استطاعوا الدفاع عن انفسهم بكل شجاعة، ولم يتردّدوا طرفة عين في قتل أعدائهم الغادرين(٥٨)، كما أكّد ذلك غيره من الشعراء العباسيين كما مرَّ بنا.

عطش الإمام الحسين عليه السلام

ذكرنا سابقاً أنّ الأعداء حين رأوا شجاعة الإمام الحسين عليه السلام وبسالته في قتالهم مع أصحابه، لجؤوا إلى الأساليب غير المشروعة في الحروب، وكان أوّل شيء فعلوه- للحدِّ من قدراته القتالية - هو قطع طريق الفرات عنه وعن آل بيته (عليهم السلام)، ونجحوا في خطتّهم، فقد حَدَّ ذلك كثيراً من قواهم، وأخذ منهم مأخذاً كبيراً، فالعطشُ أمرٌ لا يمكن احتماله بأيّة حال من الأحوال، ولذلك غدا عاملاً رئيساً في استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، وأنصاره الكرام، وصوّر بعض الشعراء العباسيين ذلك العطش تصويراً دقيقاً في قصائدهم الرثائية، وأبانوا عن أثره السلبي في المقاتلين، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان تصويرهم لذلك العطش- الذي شعر به الإمام عليه السلام وكذلك أهله وأطفاله (عليهم السلام)- مثيراً للأحزان لدى المتلقين، وفضلاً عن الأمرين، فهو(تصوير العطش) يوضح مدى الظلم الذي جرّعه الأعداء لآل البيت(عليهم السلام)، فهذا ديك الجن يعلن- في مقطوعة رثى فيها الإمام الحسين عليه السلام- عن أنّ جيوش (يزيد) قتلوه في حال عطشه، ولم يراعوا حرمته وحرمة جدِّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، والأسوأ من ذلك – أنّهم كانوا يكبّرون في اثناء قتلهم له عليه السلام ، في الوقت الذي لم يدركوا فيه أنهم – بفعلهم ذلك – قد قتلوا التكبير والتهليل، وذلك حين قال:

قَتلُوكَ عَطشاناً ولمّا يرقبوا في قتلك التنزيلَ والتأْويلا
ويكبرّون بأنْ قُتِلْتَ وإنّما قَتلُوا بكَ التكبيرَ والتَّهليلا(٥٩)

ويبدو أنّ قول دعبل الخزاعي أشدّ ألماً من قول سابقه، لأنه جاء أولاً على لسان زينب(عليها السلام) شاكية عطش أخيها ومَن معه جميعاً إلى جدِّها النبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، وثانياً لأنّ الشاعر نظمه بقلب متوجع وبصدق نفسي إلى ابعد ما يكون، فقد طرح- في قوله هذا- منع الأعداء الماء عنهم حتّى صرعوهم في حال عطشهم، في الوقت الذي كان الكلب فيه يشرب في منتهى الأمان، ذلك كله جاء على لسان زينب(عليها السلام)التي توجّهت بشكواها إلى جدِّها(صلى الله عليه وآله وسلم) كما ذكرنا، وكما قال الشاعر:

يا جَدُّ! قد مُنِعُوا الفُرات وقُتِّلُوا عَطَشاً ، فليس لَهُمْ هُنالِكَ مَوردُ
يا جَدُّ ! إنّ الكلبَ يَشرَبُ آمِناً، ريّاً ، ونحنُ عن الفُراتِ نُطْرَدُ(٦٠)

أما ابن المعتز، فانه لا يتعجّب من أي شيء سوى عجبه من قتل الإمام الحسين عليه السلام ظمآن من لدن أعدائه، وإقصائه عن مورد شرب الماء، إذ قال:

ولا عَجَبٌ غيرَ قَتْـلِ الحُسيـــــ ـــينِ ظمآنَ يُقْصَى عن المَشْرَبِ[٦١]

ويُنكر الصنوبري قضية إبعاد الإمام الحسين عليه السلام عن الماء، ويجعلها شيئاً نكيراً، ويخاطب القاتلين بأنّ فعلهم هذا فاجر، لأنهم يذودون عن سبط الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، في حين يُسْقَى البعير منه، قائلاً:

ألـك يكـنْ منعُـهُ المـا ءَ كـان شـيئاً نكيـرا
يـا مَـن يـذودُ حسـيناً عـن الفـراتِ فجـورا
تـذودُ عنـه حسـيناً بغيـاً وتسـقي البعيـرا[٦٢]

إنّ حرمان الإمام عليه السلام ومَن معه جميعاً من شرب الماء أمرٌ يبعث على الدهشة فعلاً، لأنه يفتقد أبسط مقوّمات حقوق الإنسان، ولاسيما في ذلك الزمن، إذ الإسلام في ريعان شبابه، فكيف تمكّن أعداء الله (تعالى) من قتلهم مع شدّة العطش الذي كانوا يشعرون به، والذي أحرق أكبادهم؟

ولهذا السبب نرى أنّ كثيراً من الشعراء العباسيين أعلنوا عن استغرابهم من الفعل هذا، ومنهم كشاجم الذي تعجّب من قتل الطغاة للإمام عليه السلام- مع عطشه الشديد- بسيوفهم، في الوقت الذي تشرب فيه رماحهم من دمه، فهي مفارقة غريبة توضّح شدة المأساة وحجم المعاناة التي مَرَّ بها آل البيت (عليهم السلام) في يوم الطفّ:

وتُردي الحُسينَ سُيُوفُ ةِ ظمآنَ لم يُطْفِ حَرَّ الغُلَلْ
يَرِي عَطَشاً وتنالُ الرِّما حُ من دَمِهِ عَلَّها والنَّهَلْ[٦٣]

ويدعو بعض الشعراء دعوات مختلفة لقبر الإمام الحسين عليه السلام، ومنهم السّريّ الرّفّاء الذي يدعو بالرحمة على القبر الذي دُفِنَ فيه جسد الإمام عليه السلام الطاهر وهو ظمآن، يقول:

اقامَ رَوحٌ ورَيحانٌ على جَدَثٍ ثَوَى الحُسينُ بهِ ظمآنَ آمينا[٦٤]

ويتكلم الصاحب بن عباد على الذين منعوا الإمام الحسين عليه السلام شرب الماء، قائلاً : إنّهم سيسقون في النيران أسوأ شراب وهو (غسلين) شراب لأهل النار، وسيحشرهم الله (تعالى) حشراً مؤلماً بسبب أفعالهم بسبط نبيّه (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك سيكون عقابهم أليماً حينها:

منعوا حسينَ الماءَ وهو مجاهدٌ في كربلاءَ فَنُحْ كنَوحِ المُعْوِلِ
منعوهُ أعذبَ مَنْهَلٍ وكذا غَداً يَرِدُونَ في النيرانِ أو خَمَ مَنْهَلِ
يُسقَونَ غسلِيناً ويَحشَرُ جَمْعُهُم حشراً متيناً في العقابِ المُجْمِلِ[٦٥]

ويصوّر الشريف الرضي- في إحدى قصائده في رثاء جدّه الإمام الحسين عليه السلام- مأساة الإمام عليه السلام وأهله وأصحابه في الصحراء التي قَدِموا إليها ولم يُضِفْهُم أحدٌ فيها، خوفاً من أعوان (عبيد الله بن زياد)، فلم يذوقوا الماء، بل وردوا- عوضاً منه- الموت بسيوف الجيوش الظاملة وغير المؤمنة ، إذ يقول:

وضُيُوفٍ لفلاةٍ قَفْرَةٍ نَزَلُوا فيها على غيرِ قِرَى
لم يَذُوقُوا الماءَ حتّى اجتَمَعُوا بحِدَى السّيفِ على وِرْدِ الرّدى[٦٦]

ويتحدث مهيار الديلمي عن تحرّق قلبه لما جرى للإمام عليه السلام ، من خلال الطباق البلاغي المؤلم الذي أحدثه في أحد أبيات قصيدته الرثائية، فقد حرَّموا عليه الماء وشربه، مع أنَه الشراب الحلال، ممّا أدى إلى استشهاده عليه السلام وآل بيته (

عليهم السلام) ومَن أيّده ونصره في ذلك اليوم المشؤوم وهم يتحرّقون شوقاً لشرب الماء، لذا نلحظ حزن الشاعر بوضوح في بيته، ولاسيما حين بدأه بقوله (يا غليلي):

يا غليلي له وقد حُرِّمَ الما ءُ عليه وهو الشرابُ الحلالُ(٦٧)

ومثلما أعلن مهيار الديلمي عن حزنه بسبب حرمان الإمام عليه السلام من شرب الماء، كذلك فعل الشريف المرتضى حين عبَّرَ بألم بالغ عن طرد الإمام عليه السلام من ماء الفرات من لدن أعدائه، في الوقت الذي كانت فيه إبل الغادرين وحيواناتهم الأُخر ترتوي منه إلى حدِّ الشبع، وفي ذلك مفارقة بليغة أيضاً، والتفاتة جيدة من لدن الشاعر الذي قال :

تُذادونَ عن ماءِ الفُراتِ به إبلٌ للغادرينَ وشاءُ(٦٨)

لم يكن حرمان الإمام الحسين عليه السلام ومَن كان معه من آل بيته (عليهم السلام) بمَن فيهم الأطفال الرضّع من الماء أمراً اعتيادياً ، ولاسيما أنّهم عائلة النبي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)، بمعنى أنّهم ليسوا من عامة الناس، وحتى إنْ كانوا كذلك ، فما حدث معهم لا يمكن أنْ يفعله أشدّ الناس إجراماً وقلة إيمان، فما بالك وهم أبناء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)؟ ولذلك نالت الجريمة هذه اهتمام الشعراء العباسيين، إذ أكثروا من الحديث عنها كما رأينا وأبانوا عن أحزانهم تجاهها واستغرابهم لتلك الأفعال الدنيئة(٦٩).

حمل رأس الإمام الحسين عليه السلام على الرمح:

لم يكتفِ قاتلوا الإمام الحسين عليه السلام بتحريم شرب الماء عليه وعلى آل بيته (عليهم السلام) حتى ماتوا تحت سيوفهم ورماحهم عطاشى، وإنما مثّلوا بأجسادهم الطاهرة بعد قتلهم، ولاسيما جسد الإمام الحسين عليه السلام ، إلى الدرجة التي رفعوا فيها رأسه على الرمح بعد قطعه، وممّا لاشكّ فيه فانّ الفعل هذا لا يمكن أنْ تراه عين أو تسمع به أذن إلاّ ويخشع له صاحبهما، ويهتز له بدنه، ويقشعر له جلده، لذا تحدث الشعراء العباسيون عن فعل الأعداء هذا برأس الإمام الحسين عليه السلام كثيراً في قصائدهم التي رثوه فيها، لما له من أثر حزين في نفوس الناس عامة، والشعراء على وجه خاص، ولا سيما الذين عُرِفُوا منهم بحبّهم الكبير لآل البيت(عليهم السلام).

ويبدو لنا أنّ أوّل مَن ذكر ذلك الفعل من الشعراء العباسيين هو ديك الجن، الذي صوّر- في احدى قصائده- الحادثة الأليمة هذه ووقعها في نفوس المسلمين، إذ ذكر أنّ جسد الإمام الحسين عليه السلام غدا موزّعاً فوق التراب، ومقطّعاً الى أجزاء متناثرة، فضلاً عن حمل رأسه عليه السلام على الرمح عالياً، فقال:

فالجِسْمُ أضحى في الصَّعِيدِ مُوَزّعاً والرأسُ أمسى في الصّعادِ كريما(٧٠)

ومعلوم أنّ (عمر بن سعد) هو مَن نصب رأس الإمام الحسين عليه السلام على الرمح، ثم طاف به الشام حتى عرضه على (يزيد بن معاوية) في دمشق، وذلك ما دعا بعض الشعراء إلى التعجب من ذلك الفعل، ومنهم الشاعر دعبل الخزاعي الذي أعلن عن استغراب من رفع رأس السبط عليه السلام على الرمح بمرأى من الناس الذين لم يحرّك

أحدهم ساكناً، ولم يجزعوا من ذلك المنظر، فقد قال الشاعر كلامه هذا بألم كبير وبحرقة قلب لما جرى للإمام الحسين عليه السلام، ولاسيما وجود الناس الخائفين من سطوة السلطان الأموي الجائر، فقال متعجباً:

رَأسُ ابنِ بنتِ مُحمَّدٍ - يا للرِّجالِ- على قَناةِ
والمُسلِمُونَ بمَنْظَرٍ وبمَسْمَعٍ لا جازِعٌ من ذا ولا مُتَخَشِّعُ![71]

وينقل لنا دعبل أيضاً- في بعض شعره- المشهد الأليم الذي ساق فيه الأعداء نساء الحسين عليه السلام- مع حسراتهنّ وولههنّ- وأخذوهنّ سبايا إلى الشام، وهم في اثناء ذلك، كانوا يرفعون رأس الإمام عليه السلام على الرماح أمام أنظارهنّ، قائلاً في عدم نسيانه ذلك كلّه، فضلاً عن العطش الذي كان السبب الأساس في استشهاد الإمام الحسين عليه السلام:

أأنْسى- وهذا النَّهْرُ يَطْفَحُ- ظامئاً قَتيلاً ومَظْلُوماً بغيرِ تِراتِ
وقد رَفَعُوا رأسَ الحُسينِ على القنا وساقُوا نِساهُ حُسَّراً ولَهاتِ[72]

إنّ الألم الشديد الذي شعر به دعبل الخزاعي نتيجة للفعل هذا غير الاعتيادي وغير المُسَوَّغ، جعله مُتحسِّراً لما ناله آل البيت (عليهم السلام) على أيادي الجيوش الشيطانية ليزيد بن معاوية وزياد بن أبيه، وقد أعلن عن حسراته كثيراً في شعره، ولاسيما فيما يتعلق بمنظر حمل الرؤوس على الرماح، يقول:

واحَسْرتاه لَكُم جَسُومٌ بالعَرا فيها، وفَوقَ الذّابِلاتِ رُؤُوسُ[73]

كما تحدّث الصنوبري عن فظاعة الفعل الوحشي هذا في قصيدة رثى فيها النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وآل بيته(عليهم السلام)، فعدّ – في أحد أبياتها – حمل رأس الحسين عليه السلام على الرمح خطباً كبيراً، إذ قال:

ألمْ يكنْ حملُ رأسِ الـ ـحسينِ خَطْباً كبيرا[74]

ويتفاقم الحزن ويصل إلى أعلى مستوياته لدى الصاحب بن عباد، الذي نشعر – في أبياته- أنيناً طاغياً، ونكاد نحسّ بحرارة دموعه من خلال لغة الأبيات التي صوّر لنا فيها طريقة ذبح الأعداء للإمام الحسين عليه السلام التي شبهها بذبح الأضاحي، طالباً- في الوقت نفسه- من قلبه أنْ يتصدّع حزناً على ذلك المنظر، ثم تحدّث عن كيفية سحق جسمه الطاهر بحوافر خيولهم بعد تقطيعها إلى اجزاء متناثرة متوعّداً إيّاهم بالعقاب الأليم، كما أبان عن ضلالة الكفّار في سعيهم إلى رفع رأس الإمام الحسين عليه السلام على القنا، ويختم أبياته بتصوير حاله التي نالت حظّها من الحزن إلى الدرجة التي رأى فيها أنّ دماءه هي التي كانت تسيل- حزناً- لا دموعه فحسب، قائلاً:

ذبحوهُ ذَبحَ الضاحي فيا بُ تَصَدَّعْ على العزيزِ الذَّليلِ
وطأوا جسمه وقد قَطَّعُوهُ ويلهم من عقابِ يومٍ وبيلِ
أخذوا رأسَهُ وقد بَضَّعُوهُ إنّ سَعْيَ الكفّار في تَضليلِ
نصبوهُ على القنا فدمائي لا دموعي تسيلُ كُلَّ مَسيلِ[75]

أمّا الشريف الرضي، فانه يستغرب صلاة الأعداء والقتلة على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في اثناء حملهم رأس ابن بنته عليه السلام على الرمح، علماً أن صلاتهم تلك كانت برغبة بعضهم

وإكراه بعضهم الآخر، فعجباً لهم كيف لم يكبّروا المصاب الأليم، ولم ينهضوا إجلالاً له؟

حَمَلُوا رأساً يُصَلُّونَ علـى جَدِّهِ الأكـرمِ طَوعـاً وإبـاَ
يَتَهادى بينَهُم لـم يَنْقُضُـوا عَمَمَ الهامِ، ولا حَلُّوا الحُبَى(٧٦)

واتسم شعر رثاء الإمام الحسين عليه السلام- الذي صوّر مضمون حمل رأسه على الرمح- بأنّه منظوم بانفعال نفسي عالٍ من لدن أكثر الشعراء الذين تحدثوا عن الأمر هذا، فكانوا- لذلك السبب- قادرين على إثارة الحزن لدى المتلقين من جهة، وإبراز دناءة الأعداء من جهة أخرى، الأمر الذي أدّى إلى معرفة الناس بحقيقة ما جرى، من خلال قصائدهم بما وفروا لها من العاطفة المشحونة بالحزن الكبير، الذي أصبح قادراً على استدرار دموع السامعين، وتعاطفهم مع آل البيت (عليهم السلام).

السبايا (عليهنّ السلام):

بعد أنْ تَمَّ للأعداء ما أرادوه من قتل الإمام الحسين عليه السلام وأخوته وأقاربه وأصحابه جميعاً، باستثناء الإمام زين العابدين عليه السلام الذي كان مريضاً حينها، قاموا بحرق خيام النساء وسبيهنّ جميعاً وأخذهنّ سيراً على الأقدام الى الشام، وقيّدوهنَّ وأسقطوا عنهنّ حجابهنّ ، وهنّ – في اثناء ذلك- والهات باكيات على استشهاد الحسين ومَن معه من آل البيت(عليهم السلام أجمعين) ، فتصدّى كثير من الشعراء العباسيين للمعاملة السيئة من لدن أولئك الأعداد لنساء آل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، فعبّروا – بحزن شديد – عن تلك المشاهد الأليمة في قصائدهم الرثائية التي اختصت برثاء آل البيت (عليهم السلام) بوجه عام، أو رثاء الإمام الحسين عليه السلام بوجه خاص.

فهذا دعبل الخزاعي يلجأ الى عقد موازنة تتضمّن مفارقة عجيبة، يصوّر فيها بنات زياد مصونات في القصور، في الوقت الذي تكون فيه نساء آل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) سبايا في الفلوات الجرداء مدميات الأقدام، من كثرة السير على أقدامهنّ ، إذ يقول:

بناتُ زِيادٍ في القُصورِ مَصُونَةٌ وآلُ رسولِ اللهِ في الفَلَواتِ(٧٧)

ويتحدث الشاعر نفسه عن حال السيدة زينب بنت الإمام علي(عليهما السلام) في ذلك الموقف ، وهي ترى أخاها عليه السلام مذبوحاً ومرضّض العظام، والحال نفسها مع اخوتها جميعاً، فيصوّرها متحدّثة الى جدّها النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) شاكية له ما تعرضوا له من الظلم والعدوان على أيادي الفئة الكافرة التي لم ترعَ حقّ الله (تعالى) فيهم، ولاحقّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك، وفحوى تلك الشكوى أنّ الأعداء – بعد قتلهم لأخيها عليه السلام – كانوا قد قطّعوا جسده الطاهر بسيوفهم ، ورضّضوا جسمه بحوافر خيولهم ، فضلاً عن أنّهم جرّدوه من ثيابه كلّها، ثم استباحوا النساء، وقاموا بسبيهنّ بعد ذلك مع الأطفال الذين تيتّموا بعد استشهاد آبائهم.

وبعد أنْ تكلم الشاعر على ذلك كلّه بلسان السيدة زينب (عليها السلام) ، صوّر لنا كذلك – شكواها الى جدّها (صلى الله عليه وآله وسلم)

ممّا نالها، بحيث أصبحت تقوم وتقعد من دون شعور، لشدّة هول المصاب عليها، وكبر حجم الفاجعة التي لا يمكن أن يتحملها الانسان الاعتيادي إلاّ بمساعدة إلهية من لدن الباري (عزّوجلّ) ، فهي ترى أخاها مضرّجاً بدمائه، وقد كُسِرَتْ عظام صدره لصعود الخيول ونزولها عليه، فضلاً عن كونه عارياً نتيجة لما فعله الأعداء، وذلك كله كان في شكواها ، من خلال قول الشاعر:

كيفَ القرارُ وفي السَّبايا زَينبٌ ... تدعو بِفَرطِ حَرارةٍ ! يا أحمَدُ !
هذا حُسينٌ بالسُّيوفِ مُبَضَّعٌ ... ومُلَطَّخٌ بدمائِهِ، مُستَشْهَدُ
عارٍ بلا ثَوبٍ، صَريعٌ في ... بينَ الحوافِرِ والسَّنابِكِ يُخْضَدُ
والطَّيِّبُونَ بَنُوكَ قَتلى حولَهُ ... فوق التُّرابِ، ضَواحِياً لا تُلْحَدُ
والشَّمسُ والقمرُ المُنيرُ ... حولَ النُّجومِ تَباكَيا،
أنَسيتَ قَتْلَ المُصطَفَينَ ... حولَ الحُسينِ ذبائحاً لم
فَسَقَوهُ مِن جُرَعِ الحُتوفِ ... كُثُرَ العَدُوُّ به وقَلَّ المُسْعِدُ
ثُمَّ استباحوا الطاهِراتِ ... فالشَّمْلُ مِنْ بَعْدِ الحُسينِ
بالطَّفِّ حَولي مِن يتامى ... في الذُّلِّ قد سُلِبُوا القِناعَ
[....]
يا جَدُّ ! قد أمْسَيتُ مِمّا ... ولِما أُعانِيهِ أقومُ وأقعُدُ
يا جدُّ! لو أبْصَرتَني ورأيتَني ... والخَدُّ منِّي بالدِّماء مُخَدَّدُ
يا جدُّ! ذا نَحْرُ الحُسينِ مُضَرَّجٌ ... بالدَّمِ، والجِسْمُ الشَّريفُ مُجَرَّدُ
يا جدُّ! ذا صَدْرُ الحُسينِ مُرَضَّضٌ ... والخَيلُ تَنْزِل مِن عَليهِ وتَصْعَدُ[٧٨]

إنّ في تكرارنداء زينب (عليها السلام) المستمر للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) في قول اللشاعر دليلاً على ذهول زينب (عليها السلام) في تلك الساعات العصيبة ، ولاسيما في اليوم العاشر من محرم الحرام، كما أنّه دليل على حزنها واضطرابها ممّا مرَّتْ به ، وهو – في الوقت نفسه – يؤكد حزن الشاعر الكبير الذي دفعه – بوعي أو من دون وعي– الى تكرار صيغة النداء (ياجَدُّ) مرّات عدّة في أبيات متتالية، وهو يؤكد حزنه ذلك – في مناسبة أخرى– حينما يذكر – في احدى قصائده الرثائية – لفظة الحزن صراحة، (فوا حَزَني) ، في دلالة على نقل مشاعره لما جرى للسبايا (عليهنّ السلام) في ذلك اليوم المشؤوم الذي سبى فيه الأعداء نساء آل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) باكيات مجرّدات من حجابهنّ، فيقول :

وسَبَوا – فوا حَزَني – بَناتِ مُحَمَّدٍ ... عَبْرى حَواسِرَ ما لهُنَّ لَبُوسُ[٧٩]

ويتساءل الصنوبري – متعجباً – عن السبب الذي من أجله قُتِلَ الإمام الحسين(عليه السلام) ، فهو لم يفعل شيئاً يستوجب فعل ما جناه أعداؤه، كما أنّه يَعدُّ هتكَ حريمه أمراً حقيراً لا يمكن أنْ يفعله انسان لديه جزء ضئيل من الايمان في قلبه، قائلاً:

يا قومُ ماذا جنى القو ... مُ دُمِّروا تدميرا؟
أكانَ هتكُ حريمِ الـ ... ـحُسينِ أمراً حَقيرا؟[٨٠]

أمّا كشاجم ، فانه – في بعض شعره في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام)– يتحدث عمّا تعرّضت له النساء في يوم عاشوراء من هتك سترهنّ، وعظيم البلاء الذي واجَهْنَهُ، فقد عاملهنَّ الأعداء – بعد أن تم لهم ما أرادوه – معاملة الإماء ، مع

أنّهنَّ حرمُ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ، وذلك ما قاله الشاعر فعلاً في قوله مصوّراً هول الفاجعة باستشهاد الإمام الحسين عليه السلام :

لقد هُتِّكَتْ حُرَمُ المُصطَفى وحَلَّ بِهِنَّ عظِيمُ البَلاَءِ
وساقُوا رِجَالَهُمُ كالعبِيدِ وحازُوا نِساءَهُمُ كالإماءِ[٨١]

إنّ ما حدث في كربلاء كان أمراً يبعث على الدهشة فعلاً، ولاسيما سبي النساء اللواتي كنّ مع الإمام الحسين عليه السلام مع أنّهنّ نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك نجد الصاحب بن عباد يستغرب فعل الأعداء الذي لا يدلّ إلاّ على تجاوزهم الحدود كلّها، ففعلوا فعلهم ذلك وكأن محمَّداً (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن نبيّهم، وإنما كان من ملّة هرقل ، قائلاً:

وتُسْبَى بناتُ مُحمّدٍ حتّى كأنْـ ـنَ مُحمَّـداً وافـى بملَّـةِ [٨٢]

وفي وقت آخر نجد الشاعر آمراً دمعه بالانسفاك والانسفاح لما جرى للحسين وآله (عليهم السلام) في كربلاء، ومن ثمّ يتعرّض لحادثة سبي النساء وقد كشفوا عن حجابهنّ، واستباحوا النظر اليهنّ، وكأنّهنّ لم يكنَّ على صلة قرابة متينة بالنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، في الوقت الذي يحمي فيه (يزيد بن معاوية) نساءه مستورات محجبات، فيا للمفارقة الغريبة بين الحالين!

يا دمعُ حيَّ على انسفا كِ ثَمّ حيَّ على انسفاحِ
في أهلِ حيَّ على الصلا ةِ وأهلِ حيَّ على الفلاحِ
يحمي يزيدُ نساءَهُ بين النضائِدِ والوشاحِ
وبناتُ أحمد قد كُشِفْـ ـنَ على حريمٍ مُستباحِ
ليتَ النَّوائِحَ ما سَكَتْـ ـنَ عن النياحةِ والصِّياحِ[٨٣]

كما يصوّر الصاحب بن عباد – في بعض شعره– الطريقة التي استباح بها جيش الأعداء بنات فاطمة الزهراء(عليها السلام) ، فينقل لنا أنّ ذلك تمّ في اثناء بكائهنّ على الإمام عليه السلام بعد استشهاده، حين تجمّعنَ حولَه، وقد كشفوا عن حجابهنَّ بالقوّة، وهم – في اثناء ذلك – كانوا يعنّفونهنَّ ويزرعون الخوف في نفوسهنّ، وذلك في قوله:

واستباحوا بنات فاطمة الزهـ ـراء لمّا صَرَخْنَ حول
حملوهُنَّ قد كُشِفْنَ على الأقـ ـتابِ سَبياً بالعنفِ والتهويلِ[٨٤]

وكان الصاحب بن عباد من أكثر الشعراء العباسيين الذين تحدثوا – في قصائدهم الرثائية– عن سبايا الإمام الحسين عليه السلام، إذ فصَّل الحديث عن فعل الأعداء المبتذل معهنّ، وكيف أنهم لم يراعوا حرمتهنّ وحرمة جدّهنّ المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) ، كما كان حديثه في ذلك – في أكثر الأحيان – مثيراً للحزن لدى المتلقين، لما فيه من قدرة على استدرار الدموع وبثّ الألم في نفوس محبّي آل البيت (عليهم السلام) ، بفضل جودة نظمه وقوّة حجّته[٨٥].

حزن الشعراء بمصاب الإمام الحسين عليه السلام:

لا شكّ في أنّ ما تعرّضَ له الإمام الحسين عليه السلام وآل بيته (عليهم السلام) وكلّ مَن نصره من الأصحاب والمؤيدين، كان مثيراً لأشجان الناس ومدعاة لحزنهم وبكائهم ، وقد تناولنا الحديث عن ذلك في وقت سابق، أما هنا فسنتحدّث عن الحزن

الذي تولّد لدى الشعراء على وجه الخصوص، بوصفهم أكثر حساسية من الآخرين تجاه كلّ شيء، فقد تحدثوا – في كثير من مراثيهم للإمام الحسين عليه السلام – عن معاناتهم بسبب ما تعرّض له الإمام الحسين وآل بيته (عليهم السلام) ، تلك المعاناة التي بدت واضحة في قصائدهم ، من خلال الألفاظ التي استثمروها في اشعارهم، وكذلك التراكيب التي امتلأت بالأشجان، وانمازت بقدرتها على التأثير في المتلقين بصورة أو باخرى.

فالسيد الحميري لم يَطِبْ له العيش بعد أنْ رضّت خيول الأعداء عظام جسد الإمام الحسين عليه السلام ولم تلذّ له الحياة، وذلك ما أعلنه الشاعر حين تطرق الى ذكر عظام الإمام عليه السلام الزكية، داعياً لها بالسقي الدائم والمستمر في قوله:

امررْ جَدثِ الحُسينِ وقُلْ لأعظمه الزكيّهْ
يا أعظماً لا زلت من وطفاء ساكبة رويّهْ
ما لذّ عَيْشٌ بعدَ رضْـ ـضِكِ بالجيادِ الأعْوَجِيَّهْ[٨٦]

وهو – فضلاً عن ذلك – يطلب من عينه ألاَّ تبخل بالبكاء على ذوي الذمم الوفية، علماً أنّه لا يطلب منها البكاء دموعاً ، بل البكاء دماً، فهي به حريّة ، فضلاً عن أنه لا يجد عذراً لها بترك البكاء دماً على آل البيت (عليهم السلام) ، قائلاً:

يا عينُ فابكِ ما حييـ ـت على ذوي الذمم الوفيّه
لا عذر في ترك البكا ءِ دماً وأنت بـه حَرِيّه[٨٧]

إنّ دليل الأحزان عادة ما يكون في ذرف الدموع ، لانّ الدموع أصدق علامة لإظهار الحزن، لذا وجدنا الشعراء العباسيين قد أكثروا من ذرفها أو الطلب من أعينهم لذرفها، ومنهم الشاعر ديك الجن الذي طلب من عينه أنْ تجود له بذرف الدموع بعد أنْ تملأ الجفن بها، ثم خاطب عينه مسوّغاً لها طلبه ذلك في أنّ مقابر آل البيت(عليهم السلام) في كربلاء تركنَ قلبه مقابر الأحزان والهموم، فقد دُفِنَ فيها أبناء بنت النبي(عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه) ، ففيها دُفِنَ كلّ ذي نسب وحسب وخير، فيقول:

يا عينُ لا للغَضا ولا الكُثُبِ بُكا الرزايا سوى بُكا الطَّرَبِ
جُودي وجِدِّي بملءِ جَفْنِكِ مَ احتفلي بالدُّمُوعِ وانسكبي
يا عَينُ في كَربلا مَقابرُ قد تَركَنَ قَلْبي مَقابرَ الكُرَبِ
مقابرِ تَحتها منابرُ مِن عِلْمٍ وحِلْمٍ ومَنْظَرٍ عَجَبِ
من البَهاليل آل فاطِمَةٍ أهلِ المعالي والسّادَةِ النُّجُبِ[٨٨]

وغالباً ما يدعو الشعراء لقبور آل البيت(عليهم السلام) – ولاسيما الذين أُستشهِدُوا في كربلاء– بالسقيا في اثناء رثائهم وبكائهم عليهم، ومنهم ديك الجن أيضاً، فقد كرّر كلمة (البكاء) مرتين في مطلع بيتين متتاليين يقول فيهما:

أبكيكُمُ يا بَني التَّقْوى وأُعولُكُمْ وأشرَبُ الصَّبْرَ وهو الصّابُ
أبكيكُمُ يابَني بِنْتِ الرَّسُولِ ولا عَفَتْ مَحَلَّكُمُ الأنواءُ والمَطَرُ[٨٩]

وأصبح الجود بالدموع نسقاً ثقافياً لدى أكثر الشعراء العباسيين الذين قاموا برثاء الإمام الحسين عليه السلام، وهذا ما فعله دعبل الخزاعي حين طلب من عينه ذلك، وطلب منها أنْ تهمل الدموع على الحسين عليه السلام ،قائلاً:

يا عينُ جُودي بالدُّمُوع واهْمُلي وابكي [كذا] الحُسينَ السَّيِّد بن السَّيِّد[٩٠]

ويضيف الصنوبري – حين يتحدث عن حزنه لما آل إليه الإمام الحسين عليه السلام – الى البكاء صورة جديدة، ألاَ وهي عدم النوم من شدّة الحزن الذي يعتريه كلّما يتذكر كربلاء وما جرى فيها من القتل وسفك الدماء، فجنبه يجانب الفراش، لأنّه كلّما اصاب النعاس جفن عينه، تأبى العين النوم بسبب ما تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام ، فضلاً عن كثرة بكائه طبعاً بدموع غزار، فيقول:

ليس منّي فُرشي ولا أنا جانَب الجنبُ في الحُسينِ
فمتى جَمَّشَ الكرى جَفْنَ لم يجدْ جفنُ عيني انجماشا
ومتى ما بكيتُ منكمشاً كا ن بكائي أشدَّ منّي

وفي الوقت الذي يرضى فيه الشاعر بالبكاء دمعاً فقط– حزناً على الإمام عليه السلام – من دون الدم، فانه يكون مرغماً على ذلك ومن دون قناعة ، لأنّ الإمام عليه السلام يجب أنْ يكون إثبات الحزن عليه دماً لا دموعاً ، وهو – مع ذلك يجود بدموعه كي يشفي بها أحزانه وأمراضه بسبب ما جرى للإمام عليه السلام ، إلاّ أنّ الدموع الكثيرة لا تزيده إلا مرضاً وحزناً عليه، كلّما تذكّر مصرعه عليه السلام وكلّ مَن كان معه، وهم ملقون على الرمال تحت أشعة الشمس الحارقة، ولكن لعلّ الدموع تستطيع تبريد صدره الذي طالما بدا متحرّقاً من شدة وقع المأساة عليه فيما حدث في كربلاء، يقول:

لَئِن رضيتُ له دمعاً بغير دمٍ لقد رضيتُ له منّي بغير رضا
كم جدتُ بالدَّمْعِ كي أشفي فما أرى الدمعَ إلاّ زادني مرضا
[....]
إذا ذكرتُ على الرمضاءِ مَصْرَعَهُمْ بَرَّدْتُ بالدّمعِ صدراً طالما رَمِضا[٩٢]

إنّ شدّة الحزن الذي يشعر به الشاعر تجعله يُبدع في رسم الصورة الشعرية في بعض الأحيان، وإنْ كانت حزينة مأساوية، فالانفعال الصادق يُولّد حماسة كبيرة لديه، ممّا ينتج عنها الرسم بأجمل الكلملت القادرة على اثارة الحزن، واستدرار الدموع لدى المتلقين، فالصنوبري نفسه– الذي عُرِفَ بغزارة بكائه في رثائياته للإمام الحسين عليه السلام– يرسم صورة غاية في الرقة وفي إثبات الألم الشديد الذي يشعر به دوماً، فهو يبكي قبور آل بيت النبيّ(عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام)، ولكنه إنْ بكى غيرها قليلاً فإنّما يعني قبورهم (عليهم السلام)أيضاً في بكائه ذلك، وبدا ذلك في قوله :

نبكي قبوراً ، إنْ بكينا غيرها بعضَ البكاءِ فانّما نعنيها[٩٣]

ويختلف الحزن على الإمام الحسين عليه السلام من شاعر الى آخر، فالسّريّ الرّفّاء حين يتذكّر المصاب الأليم والفاجعة الكبرى، يغدو وكأنّ أحشاءه تُطوى على الجمر، من شدّة الحرقة لما جرى للإمام عليه السلام ، او كأنها تُحشى بالسكاكين ، في دلالة على تقطّعها من كثرة الحزن وشدّة الأسى ، فيقول:

أقامَ رَوْحٌ ورَيحانٌ على حَدَثٍ ثَوَى الحُسينُ به ظَمآن آمينا
كأنّ أحشاءَنا مِن ذِكْرِهِ أبداً تُطْوى على الجَمْرِ أو تُحْشَى السَّكاكينا[٩٤]

أمّا الصاحب بن عباد، فانه بعد أنْ تحدّث عن بكاء ملائكة السماء (عليهم السلام) على مصاب الإمام الحسين عليه السلام ونوحها عليه وآل بيته (عليهم السلام)، رأى أنّ البكاء مُحَلَّلٌ مدى الدَّهْر،

وعلى النقيض من ذلك، فانّ الضحك – بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام – حرام ، لذا وجدناه يطلب من الأحزان البقاء في قلبه الى الأبد، وألاّ ترحل منه، وفي ذلك – حتماً– شعور بالغ الحزن والألم اللذين اعتصرا قلب الشاعر وجعلاه ينظم مثل شعره هذا الذي يقول فيه:

ناحَتْ ملائكةُ السَّماءِ عليهُمُ وبكَوا وقد سُقُوا كؤوس الذُّبَّلِ
فأرى البكاءَ مدى الزمانِ والضحكَ بعد السِّبْطِ غيرَ مُحَلَّلِ
قد قلتُ للأحزانِ: دُومي هكذا وتَنَزَّلي بالقلبِ لا تَتَرَحَّلي[٩٥]

ويزداد اللهيب في قلب الصاحب بن عباد كلّما تذكّر كربلاء وما حصل فيها لآل البيت (عليهم السلام) ، حتى يهلكه النحيب على حدِّ قوله ، ذلك النحيب الذي يزيد لهيب الحزن في داخله حين يستذكر صورة الإمام الحسين عليه السلام في اليوم العاشر من شهر محرم الحرام، وما جرى له فيه ولآل بيته (عليهم السلام)، إذ غادرهم الأعداء صرعى غرباء، ثم سبوا النساء، وغدت السيدة زينب (عليها السلام) ولهى حائرة لا تعرف ما تفعل حين اختفى الناصرون وغاب المؤيدون:

لهيبٌ بقلبي حينَ أذكرُ فيهلكني بعد النحيبِ نحيبُ
نحيبٌ إذا قيلَ الحسينُ يزيدُ وفي قلبي الحزينِ وجيبُ
وجيبٌ أراهُ واجباً بعدَ سادةٍ تُغادَرُ صرعى والجميعُ غريبُ
غريبٌ بأرضِ الطَّفِّ تُسْبَى نساؤُهُ وزينب ولهى والمرادُ جديبُ[٩٦]

ونعود مرّة أخرى الى المشترك الرئيس في إثبات الحزن وعلامته الرئيسة، وأعني به ذرف الدموع، والجود بها من لدن الشعراء، فالصاحب بن عباد نفسه يطلب من عينه أنْ تجود بدمعها على استشهاد الإمام الحسين عليه السلام الى الدرجة التي تترك فيها خدَّه كالأرض القاحلة التي لا شيء فيها، وعلى الرغم من كثرة الدموع ، يرى الشاعر أنّ ذلك البكاء لا يشفيه من حزنه الكبير الذي ناله بسبب المصاب العظيم الذي حَلَّ بإمام التنزيل والتأويل، وفي الوقت نفسه، وفي حال متأزمة من الناحية النفسية ، وربما بوعي أو من دون وعي يقطع الشاعر بأنّ دموعه إذا صارت بمقدار البحار طولاً وعرضاً لما كفته ليثبت حزنه لما جرى لمسلم بن عقيل الذي أُستشهِدَ قبل الإمام الحسين عليه السلام ، إذ كان سفيره الى أهل الكوفة، يقول:

عينُ جُودي على الشَّهيدِ القتيلِ واتركي الخَدَّ كالمحلِّ المحيلِ
كيفَ يشفي البكاءُ في قتل مولا يَ امامِ التنزيل والتأويلِ
ولو انَّ البحارَ صارتْ دموعي ما كفتني لمسلم بنِ عَقيلِ[٩٧]

ولذلك نجده غير مقتنع بما فعله حزناً على آل البيت (عليهم السلام)، فعلى الرغم من كثرة بكائه عليهم، وابكائه الآخرين أيضاً، أنّه لم يحقق ما كان يصبو إليه، في دلالة على أنّ الحزن مهما كان بالغاً وظاهراً بشدّة، فانه يبقى قليلاً بحقّ آل البيت(عليهم السلام) ، فمصيبتهم ليست اعتيادية ، وكذلك الحزن عليهم يجب أن يتّسم بعدم الاعتيادية، ومن هنا يأتي تمنّي الشاعر بأنْ تذوب روحه دموعاً فيبكيها لما تعرّض له الحسين وآله (عليهم السلام) ، ومن دون شك فانّ الصورة هذه صورة نادرة وجميلة، على الرغم من الألم الذي يصدر من خلال الكلمات التي نُظِمَتْ

بها:

يا بني المصطفى بكيتُ وأبكَيْـ ـتُ ونفسي لم تـأتِ بعـدُ
ليتَ روحي ذابتْ دموعاً فأبكي للذي نالكمْ من التـذليلِ[٩٨]

ولم يبتعد حزن مهيار الديلمي عن حـزن الصاحب بن عباد كثيراً، لأنه يرى حزنه – الـذي أظهره على استشهاد آل البيت (عليهم السلام) – قليلاً بحقّهم، مع أنّ أضلعه كانـت تهتـزّ حزنـاً عليهم، فضلاً عن كثرة اهداره لدموعه بكاءً لهم، وذلك في قوله:

لهفَ نفسي ياآلَ (طهَ) علـيكم لهفةً كسبتُها جوىً وخَبـالُ
وقليلٌ لكـم ضـلوعي تَهْتَـزْ زُ مع الوجدِ أو دموعي تُذالُ[٩٩]

ولكن الشريف المرتضى كان أكثر إبـداعاً من غيره من الشعراء العباسيين في إظهار حزنه الشديد على ما جرى في يوم الطـفّ لآل البيـت (عليهم السلام) ، ونكاد نقطع بأنّ لصلة القرابـة الكبيرة له معهم أثراً كبيـراً فـي ذلـك الإبـداع الشعري، فهو سليل العائلة الطاهرة، فضلاً عـن قوّة شاعريته أصلاً، فنراه مخاطبـاً إيّـاهم بـأنْ يتركوا قلبه المحزون فيهم يهتاج حزناً كلّ صباح ومساء عليهم، كما أنّ الدموع التي يذرفها لم يكن خروجها من جفنه، بل من قلبه، لذا فدموعـه – في الحقيقة– دماء، ويختم المرتضى صورته هذه بقوله : إنّ الحياةَ موتٌ بعد فقد الحسـين عليه السلام ، كما أنّ البقاءَ فناءٌ من دونه:

دعوا قلبيَ المحـزونَ فـيكم صباحٌ على أُخراكمُ ومسـاءُ
فُليسُ دموعي مـن جفـوني تقاطَرْنَ من قلبي فهنّ دِماءُ
إذا لم تكونوا فالحيـاةُ مَنِيَّـةٌ ولا خيـر فيهـا والبقـاءُ[١٠٠]

وهكذا تبارى الشعراء العباسـيون فيمـا بينهم في إظهار أحزانهم، والابانة عن حسـراتهم لما تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام مع أهله جميعاً في كربلاء، وقد جمعهم مشترك رئيس ربط بـين مراثيهم كلّها تقريباً، ألاَ وهو كثرة البكـاء وذرف الدموع عليهم كما رأينا ، فضـلاً عـن الصـور النادرة الأُخر[١٠١].

فداء الإمام الحسين عليه السلام من لدن الشعراء:

كان إقرار بعض الشعراء العباسيين فداء الإمام الحسين وآل بيتـه (علـيهم السـلام)، أو تمنّيهم فداءهم في يوم الطفّ جزءاً من علامـات الحزن الكبير الذي تعايش معهـم لمصـاب أهـل البيت(عليهم السلام)، وما مرُّوا به من التعـذيب وسوء الحال والمعاملة على أيادي الجيوش الآثمة التي لم تقدّر صلتهم بالنبي (صلى الله عليه وآلـه وسلم) ، ولم ترحم صغيراً منهم ولا نساء، فضلاً عن أنّ التفدية – التي جاءت مـن لـدن بعـض الشعراء– جاءت بوصفها أمراً يُسهم في نصرتهم للإمام الحسين عليه السلام ، وإنْ كانت نصـرة معنويـة وغير مادية، فديك الجن يفديهم بنفسه أولاً، كمـا أنّه يجعل نفسه وأمّه واباه وأسرته جميعاً ملكـاً للحسين عليه السلام وآله (عليهم السلام)، وذلك في قوله :

نَفْسِي فِداءٌ لَكُمْ ومَنْ لكُـمُ نفسي وأُمّي وأُسْرَتي وأبي[١٠٢]

ويتمنّى الصنوبري لو انّ الدماء الطاهرة للحسين وآل بيته (عليهم السلام) – التي أُريقَـت في كربلاء– كان من الممكـن أنْ تُفـدى بـدماء غيرهم، لكان فداها بدمه ودماء غيره من النـاس

تقديراً لمكانتهم ونسبهم الكريم، بل تمنّى لو أنّ قطرة منها كان من الممكن أنْ تُوقى، لوقتها دماء العالمين جميعاً، يقول:

تلك الدماءُ لو انّها تُفْدى إذاً كنّا بنا وبغيرنا نفديها
لو انّ منها قطرة تُوقى إذاً كانت دماء العالمين(١٠٣)

وبعد أنْ يدعو الصنوبري لآل البيت (عليهم السلام) الدعوة المعروفة بالسقيا، يعلن عن تمنّيه لو أنّه كان معهم في كربلاء فيموت بسيوف الأعداء ورماحهم التي قتلت الحسين عليه السلام وكل مَن كان معه ؟ فقال:

سَقياً لها فئةً وددتُ معها فسقّاني الرّدى ساقيها(١٠٤)

ويبدو لي أنّ لفظة (السقي) التي وردت في البيت ثلاث مرّات، قد تعمّدها الشاعر في استعارته لها ، لتدلّ على الموت، إذ قُتِلَ الإمام الحسين عليه السلام وهو ظمآن لم يُسْقَ قطرة ماء واحدة، وإنّما سقوه كأساً من الموت، وكذلك الأطفال ، لذا فانّ مجيء اللفظة لم يكن محض مصادفة من لدن الشاعر ، بل قصد اليه قصداً للدلالة السابقة.

ويأتي الصاحب بن عباد من بعد الصنوبري ليتمنى أنْ تكون روحه فداءً لأبي عبد الله الحسين عليه السلام ، وذلك بعد أنْ تحدّث عمّا فعله الأعداء به ، ولاسيما منعه – ومَن كان معه– من شرب الماء، قائلاً:

ناوَشَتْهُ عَطَّشَتْهُ جرأةً في ملتقاها
مَنَعَتْهُ شربةً والطـ طَيرُ قد أرْوَتْ صَداها
وأفاتَتْ نفسَهُ يا ليتَ روحي قد فداها(١٠٥)

وللصاحب أُمنيات عدّة تمنّاها في نصّ شعري واحد، فهو أولاً يتمنى لو أنّه كان في كربلاء ينوح مع البواكي على الإمام عليه السلام ، وثانياً يتمنى لو أنّه كان في معركة الطَّفِّ مع الإمام عليه السلام فينصره بسيفه لا بشعره فحسب، ومن ثم يهب روحه للهلاك فداء له، وأخيراً نجده مخاطباً أرض كربلاء بأنه يفدي ذراها ، وأنّ مهجته تفدي ثراها، وذلك كلّه نجده في نصّ الشاعر الذي قال فيه:

يا ليتني في كربلا ءَ أنوحُ إنْ بكت البواكي
هذا ولو شاهدتُها لوهبتُ روحي للهلاكِ
يا أرضَها أفدي ذرا كِ ومُهجَتي تفدي ثراكِ(١٠٦)

أمّا مهيار الديلمي ، الذي عُرِفَ بكثرة مديحه لآل البيت (عليهم السلام) ورثائه لهم كذلك، فانه يفرز أُمنياته من أعماق قلبه واحساسه، مما يدلّ دلالة واضحة على صدق مشاعره، ومن ثم صدق الأُمنيات التي تمنّاها مع علمه باستحالتها ، ذلك العلم الذي جعله متحسّراً من عدم تحقّقها على أرض الواقع، فهو يجعل نفسه فداءً للإمام الحسين عليه السلام ، إلاّ انّه سرعان ما يستدرك الحديث عن بُعد تحقّق تلك الأمنية من خلال قوله : (ومَن لي بذاك)، في حين كانت أمنيته الثانية في غاية الابداع الفكري، والنظم الشعري الراقي، إذ تمنى فيها أنْ تسقي دماءه الأرض، وتغدو طعاماً للموت، فيكون هو الميت بدلاً عن أبي عبد الله الحسين عليه السلام، فضلاً عن تمنّيه أن يكون – في يوم الطّفّ – مع الإمام الحسين عليه السلام فيُقتلَ ويكون شهيداً أمامه، وذلك

كله لا ينبع إلاّ من قلب مخلص في حبّه لآل البيت (عليهم السلام) وقد تأسّى الى درجة بعيدة وموغلة لما أصابهم يوم عاشوراء، فيقول:

فداؤك نفسي ومَنْ لي بذا ك لو أنّ مولىً بعيدٍ فُدي
وليتَ دَمي ما سَقَى الأرضَ يقوتُ الرَّدى واكون الرَّدِي
وليتَ سَبقتُ فكنتُ الشَّهيدَ أمامكَ يا صاحبَ المشهدِ[١٠٧]

ولم تبتعد الصورة التي رسمها المرتضى عن صورة مهيار الديلمي، ففيها يرتضي المرتضى لنفسه أنْ يكون مع الإمام الحسين عليه السلام أيضاً في تلك المعركة، فيموت قبله بالرماح الردينية في موقف مشهود من لدن الإمام عليه السلام ، قائلاً:

وأرتضي أنّني قدمتُ قبلكُمُ في موقفٍ بالرّدينياتِ مشهودِ[١٠٨]

ثم يكرر الشاعر معنى قوله السابق، ولكن بتفصيل أكثر وباندفاع أشدّ منه، ممّا أدى الى إبداعه الكبير في رسم الصورة الشعرية التي يؤكد فيها أنّه لو كان حاضراً مع الإمام الحسين عليه السلام في تلك الحرب وشاهد آل البيت (عليهم السلام) بين الأعداء وهم يحاصرونهم ، وقد علا الكفر على الايمان، لكان قد خضّب سيفه بدمائهم، كناية عن قتله لهم ومبالغته في حجم ذلك القتل، ولَمَحا – من دمائهم– حجول حصانه، ولأشفى أحقادهم وأضغانهم بطعنهم بالرماح، فضلاً عن بيع نفسه بأرخص الأثمان لآل البيت (عليهم السلام) في يوم الطفّ ، مع أنّها عزيزة عليه، في دلالة على أنّهم(عليهم السلام) يستحقون التضحية بالغالي والنفيس، وذلك كلّه نلحظه في قوله متحمّساً للقضية التي شغلت العالم أجمع وستشغلهم الى يوم القيامة:

فلو أنّني شاهدتُهمْ بين والكُفْرُ مُعْلَوْل على الايمانِ
لَخَضَبْتُ سيفي من نجيعِ ومحوتُ من دمهم حُجول
وشفيتُ بالطّعنِ المبرِّحِ داءَ الحقُودِ ووعْكَةَ
ولَبِعْتُهُمْ نفسي على ضَنٍّ يومَ الطُّفُوفِ بأرْخصِ الأثمانِ[١٠٩]

وعلى الرغم من أنّ الصورة التي رسمها ابن الهبارية لم تبتعد – في مضمونها– عن صورة المرتضى السابقة، إلاّ أنّ الشاعر يُقسم فيها للإمام الحسين عليه السلام بأنه لو كان معه وشهد كربلا لبذل ما باستطاعته من أجل نصره والتقليل من معاناته في تلك الأيام، وهو لم يقل قوله هذا إلاّ بعد أنْ مرَّ بكربلاء وجلس يبكي الإمام الحسين عليه السلام ، لذا نظم ابياته هذه ، التي أضاف اليها، فضلاً عمّا سبق، بأنه فيما لوكان حاضراً تلك المعركة لسقى سيفه ورمحه من دماء خصومهم ، ولكنه – لشقوته – أُخِّر عن زمن الإمام عليه السلام فلم تُكْتَب له الشهادة ليكون سعيداً ، ولم يبقَ له سوى الهمّ والوسواس كلّما تذكّر كربلاء، ولذلك لم يعد باستطاعته سوى بذل الحزن والدموع ، وذلك حين قال:

أحُسَينُ والمبعوثُ جدُّكَ قسماً يكونُ الحقُّ عنه
لو كنتُ شاهد كربلا لبذلتُ تنفيسِ كربِكَ جهدَ بذلِ
وسقيتُ حَدَّ السَّيفِ من عَلَلاً وحَدَّ السمهريِّ الذابلِ
لكنّني أُخِّرْتُ لشقوتي فبلابلي بين الغَرِيِّ وبابلِ
هَبْني حُرِمْتُ النصرَ من أعدائكمْ فأقَلَّ من حزنٍ ودمعٍ سائلِ[١١٠]

وفي نهاية البحث هذا لابد من الاشارة

الى أنّ رثاء الإمام الحسين عليه السلام لم يكن مقتصراً على المضامين السابقة التي تحدثنا عنها، أو على النصوص الشعرية التي تمثّلنا بها فيما مضى ، وإنّما تعدّى ذلك بكثير، الأمر الذي لا يدعنا نفصل القول فيها كلها، لذا اكتفينا بالحديث عن المشتركات فحسب، وبامكان القارئ الكريم الرجوع الى المراثي الأُخَر، وهي مبثوثة في دواوين الشعراء العباسيين[١١١] .

كما تجدر الاشارة الى أنّ بعض الشعراء آثروا رثاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء خاصة، لما له من وقع كبير في نفوس محبّيه، بوصف اليوم هذا عاملاً فعّالاً في تذكّر الإمام عليه السلام ، وما جرى له فيه مع آل بيته (عليهم السلام) أجمعين، فخصّصوا له القصائد الطوال التي تناولت يوم الطفّ من أبعاده جميعها[١١٢].

الهوامش:

(١) ديوان السيد الحميري/٦٠-٦١.
(٢) ينظر : م.ن /٦٠-٦١ ، الهامش.
(٣) ديوان ديك الجن /٤٣، النوء: النجم مال للغروب، والمقصود بالأنواء هنا: الرياح.
(٤) م. ن /١٨٦.
(٥) شعر دعيل بن علي الخزاعي/٢٤٦.
(٦) م.ن / ٢٥٤، هبره: قطّعه قطعاً كباراً، والمُقصِد : الذي لا يخطئ موضعه.
(٧) م.ن /٢٧٧، الحِبَر: العالم، ذمياً كان أو مسلماً.
(٨) ديوان الصنوبري/ ٢٢١.
(٩) م.ن / ٢٧٠.
(١٠) م.ن / ٣٩٩.
(١١) ديوان كشاجم/ ٤.
(١٢) م.ن / ٣٤٧.
(١٣) ديوان الصاحب بن عباد/٨٦.
(١٤) م.ن / ١١٨.
(١٥) م.ن / ٢٦١.
(١٦) ديوان الشريف الرضي١/٤٥.
(١٧) ديوان مهيار الديلمي٢/٢٦٣، الأسوف: السريع الحزن الرقيق القلب، نغر: أسال، القروف: جمع قرف، وهو القشرة تعلو الجرح، الحفيف: صوت أجنحة الطائر.
(١٨) م.ن ١٧/٣، الوصلة: الاتصال.
(١٩) ديوان الشريف المرتضى١/١٥٩.
(٢٠) م.ن ٣٧/٢
(٢١) م.ن ١١٦/٢.
(٢٢) شعر الشافعي /٢٣٠.
(٢٣) شعر دعبل بن علي الخزاعي /١٤١.
(٢٤) م.ن /٢٤٥-٢٤٦.
(٢٥) م.ن /٢٦١.
(٢٦) شعر ابن المعتز١/٤١٢-٤١٣، صلصلة اللجم: امتداد أصواتها، المقنب: الجماعة من الخيل والفرسان.
(٢٧) ديوان الصنوبري/٩٥.
(٢٨) ديوان الصاحب بن عباد/١٢٧.
(٢٩) م.ن / ١٣٣.
(٣٠) ديوان الشريف الرضي١/٤٤.
(٣١) م.ن ٤٧/١، باخ: سكن ، رقأ: انقطع جريانه.
(٣٢) ديوان مهيار الديلمي ١٧/٣.
(٣٣) ديوان الشريف المرتضى ٣٨/٢، النياط: القلب أو عرق معلق به القلب، داج:مظلم، ونميط: نبعد ونزيح ، والجوى: الحزن، السمام: السمّ، ويولجنا: يدخلنا، والوراط: جمع الورطة وهي الهلكة.
(٣٤) ينظر : م.ن ١٥٩/١، ١١٥/٢.
(٣٥) ديوان ديك الجن/٣٣.
(٣٦) م.ن / ٤٢، وتنظر: ٦١، ١٨٦.
(٣٧) شعر دعبل بن علي الخزاعي/١١١-١١٢، الإيسار : المفرد:ياسر: الذي يلي قسمة الجزور، والجزور: الناقة المجزورة، الوَغَرْ: الغيظ والحقد، ويريد: (حرب بن

أُمية)جدّ معاوية، و (مروان بن الحكم)، ربع بالمكان، يربَع رْبعاً: اطمأن.

(٣٨) م.ن/ ٢٤٠.

(٣٩) م.ن /٢٤٩، ضَهدَهُ: أذلّة وظلمه.

(٤٠) م.ن /٢٥٧

(٤١) م.ن /٢٦٠-٢٦١، بضع اللحم وبضَّعه: قطّعه، وحمس اللحم : قلاه، أداله: جعل الدولة إليه..

(٤٢) ديوان الصنوبري/٢٢٢، الأُيوم: جمع أيم وهي الحيّة، الارتهاش والارتعاش بمعنى واحد

(٤٣) م.ن /٢٧١-٢٧٢، غرض: ملَّ وضجر، الوفضة: جعبة السّهام من أدم، واتفض هنا بمعنى اتخذ وفضة وأصله أوتفض فأبدل.

(٤٤) م.ن /٥١٠.

(٤٥) ديوان كشاجم/٣٤٧.

(٤٦) ديوان الصاحب بن عباد/٦٥.

(٤٧) م.ن /٨٦-٨٧.

(٤٨) م.ن /١٢٦.

(٤٩) م.ن/٢٦٣.

(٥٠) ديوان الشريف المرتضى١/٤٧٥.

(٥١) م.ن١/٥٤١، النزر: القليل.

(٥٢) ينظر على سبيل المثال: ديوان ديك الجن/٦١، ١٨٦، وشعر دعبل بن علي الخزاعي/٢٤٦، ٢٧٧، وديوان الصنوبري /٩٦، وديوان الصاحب بن عباد /١٠٤، ١٣٣، ١٣٤، وديوان الشريف المرتضى ١/٤٣٩، ٢/٣٧-٣٨.

(٥٣) ديوان السيد الحميري /٧٤-٧٦.

(٥٤) ديوان الصنوبري /٢٢٠-٢٢١، الكباش: جمع كبش وهو قائد الكتيبة ، الغشاش: أول الظلمة أي عند الغروب، كامشوه:أعجلوه.

(٥٥) ديوان ابن نباتة السعدي ٢/٢٥٨.

(٥٦) ديوان الشريف المرتضى ١/٤٣٧.

(٥٧) م.ن ٢/١١٥، الحرجف: الريح الباردة الشديدة،أوجفوا :جدوا في السير، الغِرار:حدّ السيف، والمرهف: رقيق الحدّ،الأريحية: الشهامة وسعة الخلق، والمتعطف: المتهدل.

(٥٨) ينظر: م.ن٢/٤٨٤.

(٥٩) ديوان ديك الجن/١٨٦.

(٦٠) شعر دعبل بن علي الخزاعي /٢٤٨.

(٦١) شعر ابن المعتز١/٤١٢.

(٦٢) ديوان الصنوبري٩٥/.

(٦٣) ديوان كشاجم/٣٤٧، يري: من وَرَى بمعنى أفسد أو هنا بمعنى مات، أو قضى.

(٦٤) ديوان السَّريِّ الرَّفّاء ٢/٧١٧، روح وريحان:رحمة ورزق.

(٦٥) ديوان الصاحب بن عباد/٨٥-٨٦.

(٦٦) ديوان الشريف الرضي١/٤٤.

(٦٧) ديوان مهيار الديلمي٣/١٧.

(٦٨) ديوان الشريف المرتضى ١/١٥٩.

(٦٩) ينظر: شعر دعبل بن علي الخزاعي /٢٤٠، ٢٥٥، وديوان الصنوبري/١٢٩، ٢٢١، وديوان السَّريّ الرَّفّاء ٢/١٢٧، وديوان الصاحب بن عباد/٦٥، ١٠٤، ١١٨، ٢٦٢، وديوان الشريف الرضي١/١١٥، وديوان الشريف المرتضى٢/١١٧.

(٧٠) ديوان ديك الجن /٦١، الصَّعيد: التراب، والصّعاد: مفردها: الصعدة، وهي القناة المستوية، وأراد بها هنا الرمح.

(٧١) شعر دعبل بن علي الخزاعي/١٤١.

(٧٢) م.ن /٢٤٠.

(٧٣) م.ن/ ٢٦١.

(٧٤) ديوان الصنوبري/ ٩٥.

(٧٥) ديوان الصاحب بن عباد/ ٢٦٢.

(٧٦) ديوان الشريف الرضي ١/٤٦، طوعاً وإباء: أي طائعين ومكرهين ، لم ينقضوا: لم يحلوا، الحبى: الواحدة حبوة: الاشتمال بالثوب، وأراد أنّهم لم يكبروا المصاب، ولم ينهضوا إجلالاً.

(٧٧) شعر دعبل بن علي الخزاعي/ ٧٦.

(٧٨) م.ن/٢٤٧-٢٤٩، الخَضْد: الكسر والقطع، الإسعاد:الإعانة.
(٧٩) م.ن/٢٦٠ ، وتنظر:٢٤٠.
(٨٠) ديوان الصنوبري/٩٦.
(٨١) ديوان كشاجم /٤، وتنظر: ٢٤٠.
(٨٢) ديوان الصاحب بن عباد/٨٦.
(٨٣) م.ن / ٢٠١.
(٨٤) م.ن /٢٦٣.
(٨٥) ينظر : م.ن /١٠٤، ١١٨، ١٢٦، ١٣٨، ١٦٨، ١٨١.
(٨٦) ديوان السيد الحميري/ ٤٧٠، وطفاء: السحابة المثقلة بالماء والدائمة السح، الأعوجيّة: خيل منسوبة إلى فحل سابق لبني هلال اسمه أعوج ليس في العرب فحل أشهر ولا أكثر نسلاً منه.
(٨٧) م.ن / ٤٧٢.
(٨٨) ديوان ديك الجن /٣١-٣٢، احتفلت: امتلأت، البهاليل: جمع بهلول، وهو السيد الجامع لكل خير، النجيب: الكريم الحسيب.
(٨٩) م.ن /٤٣.
(٩٠) شعر دعبل بن علي الخزاعي/ ٢٥٥.
(٩١) ديوان الصنوبري/ ٢١٨.
(٩٢) م.ن /٢٧٠-٢٧١.
(٩٣) م .ن/٥١١.
(٩٤) ديوان السَّريِّ الرَّفّاء٢/٧١٧-٧١٨، العرانين: الأنوف.
(٩٥) ديوان الصاحب بن عباد/٨٧.
(٩٦) م.ن/١٦٨.
(٩٧) م.ن /٢٦١.
(٩٨) م.ن /٢٦٤.
(٩٩) ديوان مهيار الديلمي٣/١٧.
(١٠٠) ديوان الشريف المرتضى١/١٦٠.
(١٠١) ينظر على سبيل المثال: ديوان ديك الجن/٤١، ٦٠-٦١، وشعر دعبل بن علي الخزاعي/٢٧٧، وديوان الصنوبري/ ١٢٩، ٢٢٠، ٢٦٧-٢٦٨، ٣٩٩، وديوان الصاحب بن عباد/١٣٨، ١٦٤، وديوان مهيار الديلمي ٢/٢٦٣، وديوان الشريف المرتضى ١/١٥٩، ٥٣٨.
(١٠٢) ديوان ديك الجن/٣٢.
(١٠٣) ديوان الصنوبري/٥١٠.
(١٠٤) م.ن/٥١١.
(١٠٥) ديوان الصاحب بن عباد/١١٨.
(١٠٦) م.ن/ ١٣٨.
(١٠٧) ديوان مهيار الديلمي١/٣٠٠.
(١٠٨) ديوان الشريف المرتضى١/٤٣٩.
(١٠٩) م.ن ٢/٥٦١.
(١١٠) شعر ابن الهبّاريّة /١٧٥، العَلَل: الشرب الثاني ، يقال : عَلَل بعد نهل ، والسمهرية: القناة الصلبة، والذابل: الذاوي ، الغري وبابل: موضعان في العراق، والبلابل:شدّة الهم والوسواس.
(١١١) ينظر : ديوان السيد الحميري/٦٠-٦١، ٧٤-٧٦، ٣٢٨، ٣٧٥، ٤٧٠-٤٧٢، وشعر الشافعي /٢٣٠، وديوان ديك الجن/٣١-٣٤، ٤١-٤٤، ٦٠-٦١، ١٨٦ ، وشعر دعبل بن علي الخزاعي /١١-١١٢، ١٤١، ٢٣٩-٢٤٠، ٢٤٥-٢٥٠، ٢٥٤-٢٥٥، ٢٥٧-٢٥٨، ٢٦٠-٢٦١، وشعر ابن المعتز ١/٤١٢-٤١٣، وديوان الصنوبري/١٢٩-١٣٠، ٢١٦-٢٢٤، ٢٦٧-٢٧٠، ٣٩٨-٤٠٠، ٥١٠-٥١١، وديوان كشاجم ٣٤٧، وديوان السَّريِّ الرَّفّاء٢/٧١٧-٧١٨، وشعر الخبّاز البلدي/٣٧، وديوان الصاحب بن عباد/٦٥، ٨٥-٨٧، ١٠٤، ١١٨-١١٩، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٨، ١٦٤، ١٦٨، ٢٠١-٢٠٢/ ٢٦١-٢٦٣، وديوان الشريف الرضي١/٤٤-٤٧، ٣٦٠-٣٦٤، ٣٦٤-٣٦٥، ٤٨٧-٤٨٩،٢،٢/١٨٧-١٩٠، وديوان مهيار الديلمي٢/٢٦٢-٢٦٤، ٣/١٧، وديوان الشريف المرتضى١/١٥٩-١٦٠، ٢١٤-٢١٧، ٢٩١-٢٩٢، ٤٣٦-٤٣٩، ٤٧٤-٤٧٥، ٤٨٧-٤٩٠، ٤٩٩-٥٠٥، ٥٣٨-٥٤١، ٢/٢٣-٢٥،

٣٦-٣٨، ١١٥-١٢٠، ٣١١-٣١٤، ٤٨٢-٤٨٥، ٥٦٠-٥٦١.

(١١٢) ينظر: ديوان الشريف الرضي١/٣٦٠-٣٦٦، ٤٨٧-٤٨٩، ٢/١٨٧-١٩٠، وديوان الشريف المرتضى ١/٢١٤-٢٩٥، ٤٨٧-٤٩٠، ٤٩٩-٥٥٠، ٢/٢٣-٢٥، ٣١١-٣١٤، ٥٦٠-٥٦١.

المصادر والمراجع

- ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق: عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، منشورات وزارة الاعلام- الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م.

- ديوان ديك الجن ، حقّقه وأعدّ تكملته : الدكتور أحمد مطلوب ، وعبدالله الجبوري ، نشر وتوزيع : دار الثقافة، بيروت- لبنان، ١٣٨٣هـ-١٩٦٤م [تاريخ المقدّمة].

- ديوان السَّريِّ الرَّفّاء ، تحقيق ودراسة: الدكتور حبيب حسين الحسني، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والاعلام- الجمهورية العراقية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.

- ديوان السيد الحميري، جمعه وحقّقه وشرحه وعلّق عليه وعمل فهارسه: شاكر هادي شكر، قدّم له العلاّمة الكبير الحجّة السيد محمّد تقي الحكيم، منشورات: دار مكتبة الحياة - بيروت، مطبعة سميا- بيروت، د.ت .

- ديوان الشريف الرضي، دار صادر - بيروت، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت، ١٣٨٠هـ- ١٩٦١م.

- ديوان الشريف المرتضى، حقّقه ورتّب قوافيه وفسر ألفاظه: رشيد الصفّار، راجعه وترجم أعيانه: الدكتور مصطفى جواد، قدّم له: الفقيه الأديب الشيخ محمد رضا الشبيبي، دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- ديوان الصاحب بن عبّاد ، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، منشورات دار القلم، بيروت- لبنان، مكتبة النهضة- بغداد، ط٢، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

- ديوان الصنوبري، أحمد بن محمّد بن الحسن الضَّبي ،(من حرف الراء حتى حرف القاف)، حقّقه: الدكتور إحسان عباس، نشر وتوزيع :دار الثقافة ،بيروت- لبنان، مطابع غريّب- بيروت ، ١٩٧٠م.

- ديوان كشاجم ،محمود بن الحسين، دراسة وشرح وتحقيق: الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة ، مطبعة المدني ،المؤسسة السعودية بمصر، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

- ديوان مهيار الديلمي، منشورات الشريف الرضي، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ط١،ج١، ج٢، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٥م ، ج٣، ١٣٤٩هـ- ١٩٣٠م .

- شعر ابن المعتز صنعة: أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، دراسة وتحقيق: الدكتور يونس أحمد السامرائي،ج١، منشورات وزارة الاعلام- الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة- بغداد، ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

- شعر ابن الهباريّة ، جمعه وحقّقه: الدكتور محمد فائز سنكري طرابيشي، تقديم: الدكتور محمد حمويّة، طبع في مطابع وزارة الثقافة، احياء التراث العربي، دمشق، ١٩٩٧م.

- شعر الخبّاز البلدي، أبي بكر محمد بن أحمد بن حمدان الخبّاز البلدي، جمع وتحقيق: صبيح رديف، بغداد، مطبعة الجامعة ،ط١، ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

- شعر دعبل بن علي الخزاعي، صنعة: الدكتور عبد الكريم الأشتر، دمشق، ١٩٦٤[تاريخ المقدّمة].

- شعر الشافعي، الإمام الفقيه أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة: الدكتور مجاهد مصطفى بهجت [كذا]، ساعدت جامعة بغداد على نشره، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر- جامعة الموصل، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.